أوبـــرا طـــاولة البلياردو
مصطفي سيف الدين
مدونة طيور الرماد

أوبرا طاولة البلياردو

المؤلف : مصطفى سيف الدين

تصميم الغلاف : محمد مختار

مراجعة لغوية : رشيد أمديون

تقديم

الباحث عن الحرية و الباحثة عن الحب و الباحث عن الجمال و الباحثة عن السعادة و الباحث عن الحقيقة ، ما هم إلا كرات على طاولة الحياة تتخبطن فيما بينهن ، فيتساقطن في الحفرات أو تعيدهن الجدران متوجعات لتعود الكَرَة مرة أخرى .

عصا تضرب الكرة البيضاء التي لا هدف لها سوى التخبط

نعم التخبط هو ما نعانيه ، و أننا صرنا كرات بيضاء لا هدف لها ، و إن تساقطنا ضعنا .

تعلو الحياة باللحن كلما قويت أوجاعنا ثم يصمت اللحن مع صراخنا فتهدأ أوبرا حياتنا بعد أن استنزفت قوانا

ما نحياه في الحقيقة ليس سوى (أوبرا طاولة البلياردو)

1- بليارد

ديسمبر 2009

لا يكون للقصَّاص قلب حين يكتب لفظة النهاية زاعما أن القصة انتهت و أن جميع الحروف ذابت في الفراغ ، و لا يعلم أنما هذه النهاية هي مجرد بداية أخرى لنهاية ثانية التي هي بدورها بداية جديدة ، و تدور المتسلسلة و مع دورانها آلام لا تُحصى على قلوب لم تعرف يوما طعم السعادة ، لكنني لم أكن أفهم ذلك أبدا لذا ظننت أن النهاية لاحت حين صمت الفراغ أو صار يلقي في الظلال أصداء صرخات مكتومة ، رحيله دون وداع لم يكن له معنى ، لقد ألقى بكل أزاهير العمر مخلفا ورائه دمامة الوجه الكريه من الحياة لكنني مازلت أدمن ذلك الوجع حين أهرب لصندوقي الصغير لأحيا معه لحظات كنت فيها سعيدة ، ألقهم ثمار الذكريات المريرة اللذيذة بنهم شديد و أغلق كل طريق لقلبي غير ذلك الطريق ، فوضعت أستارا و نقابا ليخفي وجهي عن عيون البشر فما دام هو ليس بموجود فلأحفظ وجهي بعيدا حتى لا يراه غيره، فأعينهم تيبس بشرتي الرطبة و أنا أريده يستمتع بالندى حين تلامس أنامله وجنتي حين يعود، لذا صرت حبيسة سجن نصبته لنفسي و ستار دثرت فيه وجهي ، و قلب رحل معه تاركا إياي حطام ، كيف للحياة أن تستقيم دونه ، السواد الذي ألبسه و يظنون أنه للاحتشام إنما هو حداد على قلب شهدت نحره منذ زمن تحت عجلات الطائرة المغادرة إلى هناك .... و أنتظر و أنتظر و أنتظر عيناي العسليتان المطلتان من فوق الستار تعكس بريق الدموع حين تتحجر و جمال الحزن حين يتحول لادمان

أدمنتك سيدي حتى صارت دمائي حمما سائلة من جحيم شوقك أدمنتك حتى أنني صرت أتجرع كئوس الألم دون الشعور به

أين أنت يا أدهم ؟

* * * *

– البليارد ليس مجرد لعبة إنما هو فلسفة عميقة أن تقبض على العصا فتضرب كرة كي تدخل كرة أخرى إلى الهدف بعد التخبط بين الجدران ، كالبليارد تكون الحياة تخبطات و أوجاع و هموم و حياة بلا طائل و تنتظر أن تسجل هدفا من إحدى الكرات إلا أن حساباتك دوما ما تبوء بالفشل ،أنا خبير في لعبة البليارد يطلقون عليَّ الأستاذ ، ضع الكرات بأي تشكيل و أعدك أن أسجل أي كرة تريدها دون أن تفهم كيف دخلت فقط راقب كيف تتخبط الكرة بالجدران ثم تسقط بالهدف ، هل تظنني كاذب اذاً فالليلة موعدنا في ذلك الملهى الفخم المطل على المحيط كي أعلمك أكثر عن البليارد عن فن قذف الكرات و التخبط بالجدران عن تحاشي الكرة السوداء و عدم سقوط البيضاء و بين كل ذلك لا تنسى العصا التي تضرب البيضاء و لا تسألني لماذا يجب أن نضرب البيضاء ،ألأنها البيضاء تضرب ؟ هكذا هي قواعد اللعبة و ما دمت وافقت أن تلعب فتحمل النتيجة بصمت دون تذمر

(هكذا حادثت صديقي جون) كونه أمريكيا لا يعني أنه أكثر خبرة مني بلعب البليارد و كوننا في نيويورك لا يعني أنني ألعب على أرضه فمناضد البليارد متشابهة في كل الأحوال ، و ارض الحرية و تمثالها يضمنان تكافؤ الفرص

الحياة في نيويورك مرهقة كونك قادم للدراسة لا يعني أن الأمور سهلة بل إنني أتخبط هنا بين الجدران بين محطة وقود أعمل بها و جامعة أدرس فيها بين نظرة دونية كوني عربي و فخر و مباهاة بداخلي لنفس السبب لأننا كعرب نولد فخورين ، صديقي جون من القلائل الذين كسروا ذلك الحاجز و قرر التعمق بداخلي ليرى ما تحت تلك القشرة السطحية و يفهم أكثر من أنا ، أيضا أنا اكتشفت صديقا لم أكن أعلم أنه موجود في تلك البلاد الجافة ، لذا ذكرته بموعد التاسعة مساء في الملهى

وافق على الفور و سألني عن الساعة الآن

قلت له: الساعة الآن الثانية ظهرا ، أتدري هي الآن التاسعة في بلدي

و ابتسمت

ابتسم هو أيضا قائلا : أنتم تسبقوننا يا أدهم بزمن طويل لا بد أنكم استثمرتم ذلك الوقت . شعرت بالخبث في حروفه فرمقته بنظرة مستنكرة قائلا : أعتقد أن هناك خطأ في حساب الأزمان أعتقد أنكم أنتم من تسبقونا بسبعة عشر ساعة و ليس نحن من يسبقكم بسبع ساعات

ضحك هو و ابتسمت أنا ، ثم ذهبت أفكاري بعيدا إلى مصر حيث الليلة المقمرة و بسمات العيون الذابلة التي تسطع بنور خفي ، اشتقت للارض الصامدة رغم كل الأوجاع التي تزرع بها ، رغم كل الأحزان التي تئن بها صدور الأبناء ، رغم الجوع و المرض رغم قطرات العرق ، رغم الشمس التي لا ترحم في صيف محرق و جفاف مؤرق اشتقت لكِ يا مصر ، اشتقت ان أكون خيطا ضمن نسيج كامل لصنع وشاحا ترتدينه لتظهر جمالك و ننتظر ان يبهرنا بهائك دون جدوى لكننا كنا نؤمن أننا سنراه حتى بعد سفري سأعود كي أزين لكِ ذلك الوجه رغم كل شيء ، هنا في نيويورك لست خيطا لم يعتبروننني يوما خيطا إنما أنا هنا لا شيء فقط التمس منهم الشفقة و الرحمة كي لا أسقط وحيدا في براثن الغربة المريرة . أما (عايدة) ذات البسمة الشفيفة أعلم أنها تعشقني رأيت ذلك في عينيها و وصلتني رسائل الشوق التي ترسلها مع القمر كل ليلة ، فهل أنا أعشقها؟

بالتأكيد ليس هناك حب حين تسجن الأرواح ، الحب حرية و قيد ، سعادة و عذاب ، فرح و حزن ، شوق و وصل كل ذلك معا ، حين أخبرتني أنها تحبني لم أكن قد مررت بتلك التجربة من قبل لذا حملتني المفاجأة بعيدا إلى السماء ، لقد كبرت و صرت مرغوبا صرت أحمل قلبا لا أعرف كيف أحمله لكنه معي ، و قمت بأداء دوري محاولا ايجاد تلك السعادة – التي يقولون عنها – في عينيها ، في ذلك البحر الصافي ، و حقا أشعر ببعض الحنين إليها الإشتياق إلى كلمة (أحبك) من شفاهها ، لا أدري كيف رحلت و تركتها دون كلمة وداع لكنني لم أستطع أن أواجهها ، و لا أريد أن أعلقها بحبال للأماني يقطعها الزمن فأنا حتى الآن لا أعلم هل كنت أعشقها حقا أم أنها كانت مجرد خواطر المراهقة ،

ربما ستظل (عايدة) أنيس غربتي و الملاذ الأخير لي من جفاف الحياة الأمريكية حيث أنني لست خيطا و هم ليسوا وشاحا .

(جون) سيأتي في التاسعة و ربما نقضي وقتا سعيدا لكن أي سعادة هنا هي سعادة وقتية تنتهي بنهاية الوقت المحدد لها و لا يبقى منها إلا مجرد أشباح ابتسامة ، أحاول الانخراط في تلك الابتسامات و إقناع نفسي أنني سعيد و أنني أستطيع أن أحيا بتلك الحياة التي لا تتفق معي لكنني دوما أعود إلى أحلامي دون وعي مني أعود إلى التربة الصالحة التي نبتت منها نبتة ملوثة هي أنا ، أعود إليكِ ايتها البلد التي تحملتِ كثيرا و ما زلت تصرخين بمنتهى التحدي للألم (هل من مزيد؟)

2- الكرة البيضاء

مائلا بجسدي للأمام محاولا التركيز مليا ممتزجا بالكرة البيضاء محاولا معرفة ما تئول إليه الأمور ثم جذبت العصا نحو جسدي و بكل قوتي ضربت الكرة البيضاء لتتخبط في الجدران قبل أن تلمس إحدى الكرات الملونة و بالتالي تسقطها في الهدف بمنتهى البراعة ، لم يصدق (جون) ما رآه سألني كيف فعلتها

ابتسمت و بكل فخر شعرت أنني بروفسيرا عظيما ينثر خبراته على تلاميذه و قلت بمنتهى الثقة إنها موهبة و ضحكت

ثم اتخذت بعض الجدية في حديثي و وجهته له قائلا :

- لا شيء ينجح وحده بل هناك دائما خطوات يجب أن تتبع ، أولا يجب أن تكون أقدامك ثابتة نظراتك ثاقبة ، تعرف هدفك ، اي الكرات تبتغي أن ترسلها نحو الحفرة و عقل يدير كل ذلك بمنتهى الحنكة ثم بالقوة المناسبة تضرب الكرة البيضاء لتتخبط و تصطدم و ترسل الكرات نحو هدفها لكن كن حذرا الكرة البيضاء ليس لها هدف تصل إليه و إن سقطت في الهدف فإن محاولتك خاطئة هي فقط خلقت لتُضرب ، هي فقط خلقت لتصطدم لتتخبط لكنها بلا هدف.

نظر (جون)لي نظرة التلميذ لأستاذه محاولا السعي و فهم كل تلك النظريات و الأبعاد و الرؤى و حاول أن يطبقها قبل أن يقول لي :

- إنها لعبة صعبة بالتأكيد لا أعرف كيف استطعت أن تجيدها هكذا

ابتسمت و ربتت على كتفه :

- الحياة يا عزيزي الحياة في مصر تجبرك أن تجيد البليارد

ضحك و قهقه عاليا :

- حتى البليارد تريد ان تنسبها لمصر إنكم لا تجيدونها
- بل نجيدها بلا منضدة كلنا هناك كرات بيضاء

حاول أن يغير مجرى الحديث و يهرب بعيدا بي قبل أن استرسل في الحزن ف (جون) صديق صدوق و ذكي يفهم حين يكون الألم مزروعا بروح صديقه و يحاول أن يخفف عنه دائما لذا سألني عن المسكن الذي أقيم به ، و هل استطعت التأقلم معه فكانت إجابتي انني لم اجد نفسي بنيويورك عامة فكيف أجد نفسي بذلك المكان أنا أبحث عن جو العائلة الحار ، ان تجد من يربت على كتفيك حين تريد الصراخ

قال لي جون :

- لا عليك اعرف عائلة تريد أن تقوم بتأجير إحدى غرف منزلها يمكنك أن تنتقل إليها ، سنذهب إليهم غدا

ثم ضرب (جون)الكرة البيضاء بعصاه لأتذكر تلك العصا التي ضربت بها (عايدة) حين رحلت بعيدا عنها ..(عايدة) تلك الأوبرا الصاخبة التي تعكس بعينيها لون مصر العسلي لا أعرف لماذا اشتاق إليها الآن كثيرا ، حين كنت بجوارها هناك لم أكن أعلم أنها تعني لي كل ذلك ، هل هذا ما يسمى الحب أم أنه وليد شفقة ام أنه إحساس بالذنب تجاه الجريمة التي اقترفتها برحيلي .. حقيقة لا أدري

لم يقتلعني من هواجسي غير صيحة (جون) أخيرا نجح في أن يسقط إحدى الكرات في الحفرة ، نظرت إليه مبتسما كم هو طيب

رفع عينيه نحوي قائلا :

- أتدري لم أشعر بكل ذلك المرح منذ رحلت (سامنتا) إلى لوس انجلوس
- هل تشتاق لها ؟
- أوه يا صديقي ليس مجرد اشتياق ، أعتقد أنه أكثر من ذلك ،حين تشعر أنك في لوس انجلوس بالرغم كونك لم تغادر نيويورك ، حين يصبح الكأس رفيقك و الحزن جليسك و العمل و الدراسة هما فقط ما يبقيانك حيا

تعجبت من ذلك الأمريكي الذي يملك قلبا ، لم أكن أعرف أن للأمريكيين قلوب قبل أن أرى (جون) إنه يحمل روحا طاهرة و قلب يعرف معنى العشق ، إنه ليس مثلي ربما ليست الحياة هنا جافة بالقدر الذي كنت أظن

- و لماذا رحلت ؟

نظر نحوي بعين لا يغادرها الدمع رغم أنها لا تنزفه و بامتعاض شفتين حاول أن يبتسم ابتسامة شاحبة دون جدوى فقال لي :

- حصلت على عرض مغري للعمل كمذيعة في إحدى قنوات لوس انجلوس فقررت الرحيل كما أنها ظنت أننا لن ننجح معا قالت لي أن العشق يعيق الطموح و يكبله.

حاولت أن اربت على كتفيه و أخرجه من ذلك الألم الذي يعتصره و أفكاري تختلط عايدة ، جون ، سامنتا ، أنا ، كلنا ندور في الفلك ذاته ، القصص دوما تتشابه ، الأفكار تتداخل ، و كل البشر سواء كانوا أوروبيين ، افريقيين ، أمريكيين لهم نفس القلوب و العقول ، شعرت بأن سامنتا مجرمة كيف آن لها أن تحطم قلب (جون) هكذا و لم أشعر بكل ذلك السخط نحوي ربما كنت أجد الأعذار في أن أفعل ب(عايدة) نفس الشيء ، وجهت عصاي نحو الكرة البيضاء و بمنتهى القوة و بلا قلب ضربتها حتى اصطدمت بالعديد من الكرات و سقطت في إحدى الحفرات تنتظر يدا تمتد إليها لتخرجها من مأزقها فابتسم (جون) و قال :

– الكرة البيضاء سقطت ، أخيرا أخطئت لقد شككت فعلا في كونك بروفسيرا في البليارد

كالعادة كل مساء أناجي القمر أن ابحث عن (أدهم) و أخبره أن يعود ، أخبره أنني أنتظره ، أنني اذوب كشمعة يتقاطر سائلها الحار كل ليلة فتنزوي ، و تضيع بلا أمل في

أن تعود كما كانت ، أخبره أن شعلتي لن تستطيع مقاومة الرياح كثيرا فاعلم أنني إلى الفناء أسير و حتى إن كان قلبي لديك أسير فالقبر كفيل أن يحرره من عذابك ، أنا أموت سيدي و أنت ليس لديك ذرة شعور عما ألاقيه ها هنا .

أخبره أيها القمر أنني أنتظره رغم كل شيء ، أخبره أنه فقط لو أتى سأنسى منه كل شيء سأفسح له بداخلي ليجلس على عرشه الوثير الذي احتفظ به له كما هو ، أخبره عن دموعي التي أغرقت وسادتي ، عن دمائي التي بحرارتها أذابت عروقي

أخبره عن شحوبي ، أخبره عن بشرتي التي احاول أن احفظها له ندية دون جدوى

لماذا أنت صامت أيها القمر ، أخبرني أن رسائلي تصل إليه أم أنك تخطىء العنوان دائما ، إن كنت لا تراه فأخبرني أما إن كان لا يراك فلا تخبرني دعني أحيا على أمل أن يظل يراك و يشعر بك دعني أعيش و أنا أظن ان له قلب ما زال يشعر بي و يحلم بلحظة تجمعنا معا ... أدهم أنا عايدتك انا اوبراك الصاخبة الصامتة انا ملحمة العشق الساكنة

كيف تنساني و أنت كنت من يخبرني عني و كنت تفهمني أنني كذلك

لا زلت أحياك و افتقدني معك هناك الروح في نيويورك و الجسد الساكن في القاهرة و اللسان الصامت لا تغادره صرخة ، ضلوعي صارت كهف مقفر بلا فتحة للضوء كيف أعرف ملامح كهفي دون ضوئك

تعالى صوت رنين هاتفي لينقذني من سيل ذكرياتي المضنية و سوطها الموجع كانت (ياسمين) صديقتي .. تذكرني بأن الغد هو الاحتفال بعيد ميلادها و أخبرتني أنني يجب ان أحضر ذلك الحفل ، حاولت بشتى السبل التملص فهتفت بي :

- ما لكِ يا عايدة؟ ارتديتِ النقاب ؟ و الآن لا تريدين أن تشاركينني الاحتفال ولولا أنني أعرفك جيدا لظننت بك الظنون ، أخبريني الحقيقة أنا قلقة عليكِ

حاولت أن أكظم نحيبي و قلت :

- لا شيء يا عزيزتي كل عام و أنتِ بخير سآتي غدا إن شاء الله لأحتفل معك دعكِ من هواجسك أنا بخير حال

و ظللت اكرر (أنا بخير) كثيرا كأنني أحاول أن اقنع نفسي أنني بخير فعلا لكنني لم اكن أبدا بخير حين أغلقت الهاتف و أنهيت المكالمة حاولت أن اتحصل على قسط من المذاكرة ينسيني أدهم إلا أنني كلما فتحت صفحة أطلت عليَّ عيناه لا أعرف من اين فقط عيناه السودوان تنظر لي و تخبرني أنه يحبني لكنني لم أعد أصدقها فهما نفس العينين اللتين قتلتاني و تاهت بين حروف الكتاب دموعي لتصنع لوحة من العذاب أنا بطلتها كيف لمن هو بمثل حالتي أن يحضر احتفالا لعيد ميلاد لكنني قررت الذهاب و حضور الحفل حتى اهرب من عينين سوداويين و ألم لا يقل سوادا عنهما

3- الكرة السوداء

أنا لا اجيد لعبة البلياردقط رغم أنني اعلم أن أدهم يجيدها ، حاول مرة أن يعلمني إياها أخبرني ان عليَّ أن أتحاشى الكرة السوداء فإن وصلت الكرة السوداء للهدف خسرت المباراة ، فكيف بعينيك السوداوين التي تصل كل ليلة لهدفهما داخل قلبي و تمزقه إربا دون وعي مني ، ألا تعتبر مباراتي خاسرة معك ؟ هذه كانت أفكاري حين رأيت لعبة على هيئة طاولة بلياردو أنا ابحث عن هدية تليق ب (ياسمين) لا أدري لماذا شدتني تلك اللعبة رغم أنها للأطفال ، لكن (ياسمين) طفلة و ستظل طفلة أتذكر بداية صداقتنا حين جلسنا في نفس الفصل بجوار بعضنا البعض لنكبر معا أو لأكبر وحدي بينما هي تظل كما هي الطفلة الباسمة ، تملك الطاقة و الحياة و الأهم أنها تملك الأمل تنتظر الغد كالأطفال لأنها تشعر أن الغد ستصنعه و لم يأتِ الغد أبدا و رغم ذلك تنتظره .

أي هدية تليق بكِ يا (ياسمين) سندريلا ، أليس ، باربي ، فلة

حسنا لقد وجدتها سنووايت الوجه الطفولي و القلب الباسم الذي قام بتغيير حياة الأقزام و أشعرهم بأن الحياة و إن كانت عملاقة فهي لهم .

سنووايت كم أحتاجك أيضا أن تقنعيني أنه ما زال هناك متسع لي في الحياة

قمت بشراء سنووايت و قام البائع بلفها جيدا و انطلقت من محل الهدايا نحو بيت ياسمين ، عيناي العسليتان تطلان من فوق البرقع الأسود تتأمل الطريق و تحثني على المسير إلا أنه استوقفتني صرخة بشعة ، ضحكة سوداء لرجل يرتدي السواد بالقرب من كنيسة على الطريق

صاح بكل غضب : أنت قف مكانك ! !

قالها بصيغة المذكر لم أهتم و أكملت طريقي فلم أكن أعلم للحظة أنه يقصدني فكررها بكل غضب : أنت يا من ترتدي النقاب قف مكانك

وقفت و لا أعلم لماذا يخاطبني هكذا بصيغة المذكر نظرت إليه من خلف الستار أحاول أن أفهم ماذا يعني و لكنه بدلا من أن يخاطبني قام بصفعي بمنتهى القسوة

صفعة أيقظت المهانة بداخلي التي لم تكن تستيقظ إلا ليلا حين أناجي القمر . سقطت على الأرض و الدماء تسيل من فمي . أخذ اللفافة ينظر عما بداخلها قائلا : ما نوع المفرقعات التي تحملها معك ؟

هو مُصر أن يخاطبني بلهجة المذكر حين فتحها و لم يجد إلا سنووايت الحزينة الجميلة أمرني بالوقوف نزع عني أستاري لتزداد مهانتي أكثر

لم ينطق كلمة أسف ، لم يعتذر ، فقط أمرني بالمغادرة . النزيف لا يتوقف من فمي أدهم أشعر أنني أنزفك

ضممت سنووايت إلى صدري و أسرعت الخطى نحو بيتي آملة أن تستطيع قدمي حملي للعودة إلى هناك

أعذريني يا (ياسمين) فأنا أحتاج لسنووايت هذه الليلة لن أستطيع الحضور بالتأكيد ستتفهمين و ستعرفين اي ألم أقاسيه ، أي رعب أحياه أي مرارة أتجرعها ، ياسمين كل عام و أنتِ بخير تمنياتي لكِ هذا العام ألا تكوني مثلي و أمنياتي لكِ كل عام أن تكوني بلا قلب يعذبك ، فلتبق كما أنت ياسمين زهرة تعطر الأجواء رائحتها، لا تسمحي لأحدهم أن يقطفك أن يجرحك حينها لن تعرفي إلا الألم حينها ستصبحين مثلي شبح أنثى لا تقوى على الحياة

و أنت يا أدهم أين كنت حين تمت إهانتي ؟ حين صفعت على خدي ؟ حين نزفتك دمائي حمما سائلة مني أشعر أنني أفقدك أشعر أنك تخرج مني

تعالي يا سنووايت يا حلم الأقزام النابض ، قزمة جديدة تبتغِ منك الحنان ، تربيقكتف من كفك الرقيق قد يعيد إليها الحياة

حين وصلت مع (جون) لمنزل (جورج كاسيدي) لاحظت أنه منزل يحمل عبقا خاصا فأمامه حديقة غناء تنبت فيها الزهور البيضاء بجوار الأشجار القصيرة و يبدو أن (جورج

كاسيدي)يهتم بتلك الحديقة جدا ، المنزل أسس على طراز معماري يحمل رائحة القرن التاسع عشر ، كل ذلك يمنحه دفء التاريخ قبل أن يحمل دفء البشر فبالتأكيد هناك أرواح عديدة ظللتها أسقفه و قامت بحمايتها جدرانه ،أشعر أن ذلك المنزل يناديني و أشعر أنه سيعني لي كثيرا في المستقبل ، سقطت صريع هواه من النظرة الأولى و قبل حتى أن أدلف إليه ، و في الحديقة كان رجلا يكلله الشعر الرمادي كأنه تاج مهيب و بعض التجاعيد على وجهه الذي لا يخلو من بعض القسوة فيعطيك ذلك الأنطباع الذي تشعر به حين تنظر إلى أحد ملوك العصور الوسطى في الأفلام الهزلية .

تقدم (جون) و صافحه ثم قال :

- مستر (كاسيدي) أقدم لك صديقي الذي أخبرتك عنه والذي يود استئجار الغرفة

نظر (كاسيدي)نحوي بتمعن أشعر أنه يحاول اختراق شاربي الصغير ووجهي الأبيض المتشرب ببعض الحمرة فأصولي التركية تعطي دوما انطباعا خاطئا عني

نظر نحو جون مخاطبا إياه : هل هو أيرلندي ؟

- أوه كلا مستر (كاسيدي) إنه مصري ، اسمه (أدهم البابلي)

نظر كاسيدي بانزعاج نحوي قبل أن يوجه حديثه ل(جون)

– عربي ، و مصري و بالتأكيد مسلم .. ليس لدي غرفات للتأجير و لن أسمح له بالحياة في منزلي

– لماذا يا سيدي ؟

– تسألني لماذا ؟ ألم تر و أنت قادم إلى هنا بقايا ما فعل بني جنسك ، ألم تشهد أنقاض البرجين؟ ألا تعرف أن هناك من أوذي من أصدقائي ، جاك برايتنر كان من أقرب المقربين إلي فقدته هناك بسببكم أيها المسلمون

اندهش (جون) و رفع حاجبيه ثم قال :

- سيدي بالتأكيد ما حدث للبرجين فاجعة عظمى و لا أعتقد ان (أدهم) يوافق عليه لكن أن تصدر أحكاما على الشخص لأنه ينتمي لفرقة أو جنس أو دين معين فهذه هي العنصرية ، فكل شعب به الارهابيون مع الودعاء ، الأشرار مع الطيبين و

مدينتنا نيويورك خير دليل ، هل تستطيع ان تسير في شوارع هارلم وحيدا، لو كنت مغتربا و لم أرى من نيويورك سوى عصابات هارلم هل أقول أن كل أهل نيويورك غوغائيين؟

رمقه (كاسيدي)بغضب ثم قال :

- سحقا لك ، أنا لست عنصريا ، أنا أؤمن بالحريات و أؤمن بمبادىء الانسانية ، لكن هؤلاء المسلمين يدينون بدين إرهابي يحلل الدماء بكل بساطة

كنت أراقب ذلك الحديث بمنتهى الهدوء غير آبه بكل ما يحدث فأنا أعلم أنني سأعيش و أبقى داخل ذلك المنزل هناك شيء ما يجتذبني إليه شيء ما يناديني بلا صوت لكنني أسمعه جيدا و أميزه جيدا ، لكن حين تحدث (كاسيدي) عن الاسلام استيقظت من سباتي و قلت له :

- نحن كمسلمين نؤمن بالمبادىء الانسانية ، نؤمن بحقوق الجميع في الحياة الآمنة نحافظ على معاهداتنا و لا نخون أبدا ، اقرأ التاريخ سيدي و انظر ماذا فعل أجدادنا ثم شاهد كيف نتعامل مع الأديان الأخرى و نحترم حقوق المواطنة في كل بلادنا ، الاسلام بريء من أي اتهام يا سيدي ما فعلوه ليس من الاسلام ، ديننا يحرم الدماء بلا حق ، لن أقص عليك قصصا و لن أروي لك روايات تثبت حديثي لكن يكفي أن تعرف أن في كل الأديان هناك متطرفون لا يحترمون المواثيق و الحقوق الانسانية

صمت (كاسيدي)قليلا ثم قال :

- حسنا ، يبدو أنك شخص عاقل ساحاول أن اصدقك ، و أوافق أن تعيش بمنزلي لكن ليس بالثمن الذي عرضته ، لن أقبل أن تبق إلا بضعف الثمن .

نظرت لصديقي فالآن فهمت لماذا كانت كل تلك الخطبة البراقة و عرفت أن صديقه الذي لقي مصرعه تحت أنقاض البرجين لا يعني له شيئا الا محاولة الضغط على المستأجر العربي الضعيف الذي لا يستند إلى شيء يحميه ، لكنني لن أبرح ذلك المكان لقد أحببته ، ماذا

يعني المال إن لم تشعر معه بالدفء ، و إن لم يكن للدفء وجود بين بني البشر في نيويورك الباردة فلأبحث عنه بين الجدران لذلك أومأت برأسي بالموافقة .

نظرات الدهشة من (جون)تحثني على المعاودة في قراري المجنون لكنني أصررت على قراري ، و حين رحلنا عن المنزل بعد ان اتفقنا على كل شيء

قال لي جون مندهشا :

- أنت مجنون يا صديقي بالتأكيد كنت ستجد غرفة في منزل أقل ثمنا من تلك و ربما كانت أفضل

ربتت على كتفه و قلت :

- لا عليك ، إن تذكرت ما علمتك إياه في البليارد ربما تفهم أنها لعبة يلعب فيها الحدس دورا عظيما ربما تضرب بعصاك ضربة غير متعمدة يظن الجميع أنها ضربة بالتأكيد مجنونة فتكتشف أنها اكثر الضربات نجاحا ، إنه الحدس الذي يجعل للجنون هدف .

نظر إليَّ جون متعجبا :

- و ما الهدف هذه المرة ؟

رفعت حاجبي مفكرا و قلت :

– لا أعلم ، لكنني أثق بحدسي دائما و هو لا يخيب ظني إلا فيما ندر .

مط جون شفتيه و تمتم : مجنون

4- الأرضيـة الخضـراء

نافذة مطلة على الحديقة الغناء ، الأخضر يتألق خارجها ليوقظ حلم كان بداخلي منذ الصغر و هي الحياة في قرية هادئة لاستمد منها الدفء الذي أبحث عنه طيلة حياتي سألت نفسي كثيرا ما الذي جعلني آتي نيويورك البلد التي حولتها التكنولوجيا إلى مدينة شاحبة لا تحوي أي سحر و لم أفهم طلاسما بداخلي تقودني إلى ما لا أعلم ، حقيقة لا أعرف من أنا و ماذا أريد ، ظننت في البداية أنني أعشق (عايدة) كنت اشعر أنها تعشقني لم يكن عشقا عاديا بل كانت تمدني كل صباح بزهرة و تقول لي (أنت رحيق السعادة الأبدية)ابتسم و تبتسم و هي تتنسمني ، كيف لمن يعرف أن هناك من يعشقه كل ذلك العشق ألا يستسلم لتلك الحالة و يظن أنه يبادله الهوى لهذا عشت تلك الحالة و أقنعت نفسي بها حتى آمنت أنني أحبها ، لكن بعيدا في الركن المظلم بداخلي هناك شيء ما يرفض كل ذلك لكنه لم يرسل لي بإشارات أو ايماءات فقط تركني أنساق نحوها ، و في لحظة ثار بداخلي الظلام ليعمني و انطلقت نحو مستقبلي بعيدا عن (عايدة) نعم أشعر بالحنين إليها أو ربما إن أردت التدقيق أشعر بالحنين لعينيها العسليتين و هي تنطق بحبي ، ما أروع كلمات العشق حين يتحرك بها لسانها ، هل أنت نادم يا أدهم ؟ هل تريد العودة ؟ كلا بالطبع فأنا أعشق (أوسكار وايلد)و اؤمن به حين يقول : "ما أسخف الحب ليس له حتى نصف فائدة المنطق ، فلا يدل الحب على شيء و إنما يحدثك دوما عن أشياء لن تحدث و يجعلك تصدق اشياء لا تصدق في الحقيقة هذا الحب غير واقعي أو عملي و هذا الزمن هو زمن الواقع"

لهذا أتيت هنا فرارا من وهم الحب إلى البحث عن الواقع ، وليس هناك واقع للباحثين عنه مثل نيويورك ، لكن هذه الجنة الخضراء ، الأشجار القصيرة و الزهور اليانعة و الكرسي الهزاز يقذفن بي بعيدا نحو عالم الخيال إلى هناك حيث لا منطق و لا عقل حيث يوتوبيا من صنيعي حيث الأحاسيس أشخاص تسير حولي ، وفرشاتي تقوم بتلوين القلوب ،

حيث عايدة رمز الصفاء و ينبوع الحب ، لماذا (عايدة) دائما تطارد أحلامي و أنا الذي تركتها دون أن يطرف لي جفن؟ هل أصابني الهوس و صرت مختلا

سأهرب من كل هذه الخواطر و أهيم مع إحدى الروايات في ظل ذلك المشهد الخلاب .

(العجوز و البحر) لهيمنجواي ربما تفي بالغرض . قلبت الصفحات بنهم فأنا جائع للخيال . لذلك لم أشعر بها تقف بجواري و تنظر لي ، فينوس ؟ بالتأكيد هي كذلك العيون الخضراء و الشعر الأشقر و الملامح الطفولية على ابتسامة صافية تبعث فيك ملمسا حريرياً ، لم أستطع أن أرفع عيني عنها و هي تقول لي :

- جوليا كاسيدي ابنة جورج كاسيدي

فأجبت : أدهم البابلي الساكن الجديد

رددت :

- آدام؟

ابتسمت :

- بل أدهم هناك حرف هاء

لكنها أصرت قائلة :

- فليكن آدم و لأناديك كذلك فلماذا أجبر نفسي على نطق الهاء بعد الدال و قبل الميم لماذا كل هذا التعقيد ؟ أنت منذ اليوم آدم

ومن يومها صرت آدمها

قالت لي :

- ماذا تقرأ؟
- العجوز والبحر لهيمنجواي
- و ماذا يقول هيمنجواي
- يقول (أيتها السمكة اني أحبك و احترمك كثيرا لكنني سأصرعك حتى الموت قبل نهاية ذلك اليوم)
- و ما الذي يجبرنا على قتل من نحب؟

- ربما الجوع
- أو تضارب المصالح و ربما لأننا لم نحب من الأساس جملتك هذه يا آدم ذكرتني بحفل الخريجين في الثانوية حين أراد الجميع مراقصتي و كان عليَّ الإختيار فاخترت (انتوني بانوتشي) تسألني لماذا و ما معيار الاختيار ؟ لجذوره الايطالية الجميع يتحدثون عن جاذبية الرجال الايطاليين فأردت أن أختبر ذلك و أجربه بنفسي هو بالفعل كان وسيما قسيما ليس كالأمريكيين ، و رقصنا طيلة الليل كنت أدور بين أصابعه أتباعد و اقترب ادنو و افترق كنت ليلتها كقطعة صلصال يشكلها كما يريد متى تبتعد و متى تدنو و حين انتهت الموسيقى انتهى (انتوني) من حياتي ، هكذا هو الحب مقطوعة موسيقية تهيم معها لكنها تنتهي سريعا لذا فالحب وهم ربما هو نافذة ضوء نحو الخيال لكن يجب أن تغلق هذه النافذة حتى لا تضيع بك في بعد آخر

ابتسمت :

- أنتِ تشبهينني كثيرا ، جوليا . فأنا أؤمن أن الخيال سخف و الحب وهم لكنني منذ أتيت نيويورك أشعر بالبرد فألتمس الدفء من الروايات
- الحياة يا آدم هي أرض خضراء نحن من نغرس فيها ما نريد و تثمر ما نغرس ، البلهاء فقط ه م من يزرعون الذرة و يتخيلون أنها ستثمر زهورا رحيقها يزكم الأنوف و يحملهم نحو بساتين الجمال .
- الحياة أرضية خضراء فوقها كرات مختلفة الألوان أنت من تختار أي كرة ستصوب نحوها
- أنت تعشق البليارد اذاَ ؟
- أوه البليارد حياتي
- يبدو أننا سنمرح كثيرا يا آدم فأنا أيضا أحبه
- تحبينه؟ أليس الحب وهما؟

ضحكت هي ضحكة طفولية مجلجلة حملتني إلى عالم سحري أرض لم أطئها من قبل ، حلم لم يفارقني منذ صباي و مراهقتي أن أقف وجها لوجه أمام فينوس ، و مع ضحكاتها ذهبت لأعود لروايتي و اقرأ (لا ينبغي أن نحاول قتل الشمس و القمر و النجوم حسبنا أن نعيش على الماء و نقتل إخوتنا الصادقين في الود)

رنين و رنين يخترق السكون الذي يحيط بي ولا يغمرني ، فأنا أوبرا تصرخ و لكن دون صوت ، لذا فزعت حين صدر ذلك الرنين من المنبه إن الساعة الآن السابعة صباحا ، كل ذلك الوقت مر دون أن يغمض لي جفن كل ذلك الوقت مر و أنا احتضن سنووايت و أبث إليها كثيرا من الألم و الأكثر من أشلاء الأحلام التي تمزقت و غرقت في بحار الواقع العميقة ، ذلك الرنين لم يوقظني و لم يدق نواقيس الخطر في عقلي ليذكرني أنني ما زلت أحيا حتى و إن كان قلبي ينبض حمما ، النزيف من فمي توقف بعد صفعة الضابط لكن النزيف من روحي يزداد كأن هناك بركان بداخل الروح ينتظر لحظة الانفجار و ها قد وجدها .

نعم يا أدهم أشعر بلحظات المخاض و الولادة هناك كائن جديد أقوم بولادته لكنه يسري في دمائي و يتملكني ، نعم يا أدهم ذلك الكائن لا يرى منك إلا وجهك الغادر المغادر نعم يا أدهم أنا ألفظك أقيؤك ، كنت أتمنى أن أكون ذات روح شريرة انتقامية فأدعك بداخلي لتتذوق من دمائي حر الوجع و حمم الألم لكنني للأسف لا أجيد فن الإنتقام كما أن روحي لاتجيد إلا العشق لكن كفى أيتها الروح فلتذهبي بعيدا عني غادريني إن لم تستطعي أن تنسيه ، الحياة بلا روح أهون من الحياة بروح أسيرة الحمم .

حاولت جمع ما تبقى مني بعد تلك الليلة العاصفة حاولت أن أرى العالم بعيون مختلفة بعد عيني التي فقدتها بالأمس حين ذابت بين دموعي لكنهما ما زالا عسليتين ، لكن عسلهما مختلف ، فالعسل منهما اليوم بلا مذاق ، عسل لون و علقم مذاق و بحارهما العميقة جفت ، راقبت انسياب الماء من الصنبور ، الماء لا يتوقف عن الانهمار رغم أنه يعرف أن مصيره إلى الضياع في قاع الحوض لكنه لا يتوقف عن الانهمار ، هذه عادة كل الأشياء اللينة في الحياة ، آه أيتها الحياة القاسية التي لا تسمحين للكائنات الرطبة البقاء فيكِ ، كم

أكرهك، مددت يدي ألتمس بعض الرطوبة من الماء رفعته نحو وجهي حتى أطهر نفسي من دنس (أدهم)

و بعد أن انتهيت ارتديت ثوبي لن ارتدي النقاب بعد اليوم ، هو لا يستحق أن احفظ وجهي له سأعيش كما أريد فلتنكسر كل قيودك و أغلالك اليوم أنا روح حرة .

حين انتهيت ، جلست أمام والدتي لأتناول الإفطار و أحاول الهرب من السهام التي تلقيها عيناها محملة بالعديد من الأسئلة لكنها صامتة أحسست بالراحة حين أشاحت و جهها عني نحو الطعام ، لكنها لم تظل صامتة و لم تنظر نحوي و هي تتحدث :

- عايدة ، حين أتيتِ للحياة أتيتِ بعد أعوام عجاف عجزت فيها عن الإنجاب ، والدك لم يظهر تجاهي ضيقه و إحساسه بالغيظ كون أننا لم ننجب ، لكنني كنت أشعر به ، أشعر بأنفاسه حين تغادر صدره تحمل معها الألم ، لا تظني قط أنني إمرأة كبرت فغادرتها غريزتها الأنثوية التي تفهم لغة العيون دون حديث ، حين أتيتِ يا بنيتي بعد صبر كنتِ فرحة الحياة و بسمة الوجود لنا و حين رحل والدك و تركك لي أنيسا كنت أخذت عهدا على نفسي أن أمنحك قسطا من الحرية كي لا تشعرين أنني أفرض عليك رأيا أو قرارا فأنا سأظل صديقتك و لست أمك ، لم أسئلك لماذا ارتديتِ النقاب و لن أسألك لماذا خلعتيه هذه حياتك تحملي نتيجة أفعالك ، يقولون أن أفضل طريقة كي تعلم ابنك السباحة هي أن تلقيه في النهر و هو سيعرف جيدا كيف ينقذ نفسه سيعرف جيدا أن يضرب بكلتا يديه الماء كي يصل للشاطىء ، لن أجري ذلك الحديث ثانية فقط اعلمي أنه ان أردتي الحديث ستجدين صديقة تملك قلبا لا يعشق في الكون غيرك ، و عقلا لا يحمل بين تلافيفه سواكِ اعلمي فقط أن لكِ عيون أخرى تبكي معك و لكِ يدان أخريتان تستطيع أن تربت على كتفيكِ حين تعجز يداكِ عن مسح دموعك ، بنيتي أنا من رباكِ و أعلم جيدا اي قلب تحملين بداخلك و أي عقل يتحكم بكِ لذا فأنا لست خائفة عليكِ و أثق بكِ في كل وقت و كل حال ، لن أتكلم كثيرا كي لا تتأخري فقط تذكري حين تودين الحديث فأنا انتظر بشغف .

كانت تتحدث دون أن تنظر إليَّ هل اكتفت أن تفهم ما يدور بداخلي من عيني هي أنثى تجيد فهم لغة العيون ،حاولت أن أتظاهر أنني أتناول بعض الطعام لكن محاولاتي باءت بالفشل فلم أستطع حتى أن أتظاهر، الوجع أليم و يبدو أن أمري مفضوح قاومت دموع تحاول الفرار من سجن العين بصعوبة و قمت نحو أمي قبلت رأسها كنت أريد منها عناقا أريد أن أشعر ببعض الدفء ، لا أعرف كيف فهمت ذلك لأنها تركت المائدة و قامت و بكل حنان الأمهات ضمتني إلى صدرها قائلة :

- اتركيها يا بنيتي دعيها تتحرر يكفيها كل ذلك الألم

حين قالتها لم استطع أن أمنعها تركت الدموع تزرف بقوة أجهشت بالبكاء و لكنني لم أجد بداخلي الرغبة في الحديث عن أدهم لذا صمتت فرفعت أناملها نحو وجناتي تزيل الدموع و تبتسم ابتسامة الأمهات ، يا لهؤلاء الأمهات من أي جنة أتوا بتلك الابتسامة ، شعرت حينها بالأمان و السكينة ، حملت أوراقي و غادرت المنزل و حزمت أمري أنني حين أعود سأتحدث معها عني التي لا تعرفها أو ربما هي من تعرفها و أنا التي لا أعرفها.

خطواتي نحو الجامعة في ذلك اليوم كانت أكثر ثقة ، أشعر ببعض الحرية و بعض الدعم بعد الدفء الذي استشعرته بين ذراعي والدتي ، عيناي التي صارت تنظر بحرية نحو الشارع الطويل دون قيود النقاب ، الآن أشعر أنني أرى أفضل ، لم تكن عيناي ترى غيره الآن أرى أناسي كثيرة السيارات تقطع الشارع بسرعة و شرطي المرور يقف ، لن أكون شرطي مرور يقف طيلة النهار سأمضي و أكمل طريقي فلا شيء يستحق الوقوف من أجله .

قابلتني ياسمين بابتسامتها الطفولية كعادتها و احتضنتني ، آه يا ياسمين لو تعلمين إلى أي مدى أحتاج تلك الضحكة الطفولية لينبعث من داخلي (عايودة) من جديد هكذا تناديني دوما لكنني منذ فترة و لا أشعر أنك تناديني حين كنتِ تنطقينها

تحادثنا و تبادلنا الابتسامات قصت عليَّ ما حدث في عيد ميلادها بالأمس أخبرتني أنها شعرت بأنها كبرت سنينا كثيرة و ليس عاما واحدا لأنني لم أكن موجودة لم أفهم ماذا تقصد لكنني ابتسمت ، فقط كنت أريد أن ابتسم كنت أنتظر اي شيء لابتسم ، أريد أن أتذوق الابتسام و يملؤني فهل الابتسام صعب لتلك الدرجة؟ لا أدري ، لكن ما تسبب في

توتري و قلقي هو شعوري أن هناك عينين تراقباني ، إنه (عادل) زميلنا في نفس الصف إنه الأفضل فينا أعشق ريشته هو فنان بارع يستطيع ان يرى الجمال في أي شيء قبيح و يحوله إلى لوحة زاهية الألوان ، لذا هو دائما الأول في دفعتنا

كنت دائما أراقب لوحاته بإعجاب و أشعر بالفخر أنه رفيق دفعتي في كلية الفنون الجميلة ، فهو على النقيض مني دائما أنا أنظر إلى القبح في أي شيء جميل و أحوله إلى لوحة تحمل الغموض و المرارة ، هل الكآبة أسلوب حياتي؟ لا أعلم لكن هكذا دوما يقولون لي (الدنيا جميلة) لا أدري لماذا لا يقتنعون أنني لا اراها هكذا ؟ راقبته و هو يتقدم نحوي و تعجبت هذه ربما أول مرة يقترب مني او حتى يلحظني منذ التحقت بالجامعة

اقترب و اتضحت على ملامحه النحيلة بعض الجدية قائلا :

- أعلم جيدا ماذا حدث لكِ فهم دائما هكذا

اصابني الرعب مما قال و هممت بالحديث إلا انه تابع :

- اللعنة على الحرس الجامعي بالتأكيد هم من نهروكِ و جعلوكِ لا ترتدين النقاب ثانية، لا عليكِ يا عايدة سيأتي يوم تفعلين فيه ما يحلو لكِ ما دمتِ لا تتعدين على حرية الغير هذا اليوم آت ، و أنا كلي ثقة

ثم ابتعد كمن أتى ليضخ في بعض الأمل أنني سأجعل ذلك الضابط الذي صفعني يعتذر لي ، ربما كان محقا لكن علمتني الحياة أن الصفعات تتوالى دائما على وجهي دون توقف و عليَّ أن أتكيف مع ذلك و أرضى

5- أوبرا البليارد

حين ولج الدكتور لقاعة المحاضرة ، جلس الجميع و بدا عليهم الاهتمام بينما أنا هائمة في كلمات (عادل) التي لا زالت في أذني نعم الحرية؟

هل حين اخترت أدهم كنت حرة أم كنت أسيرة لقلبي الذي أعمى بصري ،

هل الحرية أن تصنع ما يريده القلب أم تأتمر بما يمليه عليك العقل ، هل الحرية أن يأسرك الهوى أم يأسرك الخيال أم يأسرك الواقع و إن كنت أسيرا لأيهم فأي حرية يبحث عنها عادل و ينتظرها؟

انتزعني من حديثي مع نفسي صوت الدكتور حين قال :

- كي تعرفوا أكثر عن الإبداع كل ما عليكم أن تغلقوا عيونكم ماذا سترون؟ ظلام ، حلكة ، دنيا سوداء تحيط بكم في الحقيقة هذا ما يحيط بكم حين تفتحون العيون و إغلاق عيونكم لن يغير واقعكم و لن تفهموا كثيرا أي شيء بداخلكم لكن إن أغلقتم عيونكم و بدأتم تؤرجحون ريشتكم في الظلام لترسمون لوحة ما هنا يكون الإبداع ، فالإبداع هو أن تصنع النور من الظلام ، الجمال من القبح ، الحياة من رحم الموت ، اصنع من الظلام لوحة حينها ستفهم ما يحيط بك جيدا .

ظل يتحدث و يتحدث عن الإبداع عن الخيال عن الحلم عن ريشة تصنع من العدم حياة ، أشعر أنه يحدثني وحدي ، لماذا اليوم يختار ذلك الموضوع ليحدثنا عنه ، لماذا اليوم فقط يختار عادل ليقول لي أن الحرية قادمة ، لماذا اليوم فقط تخبرني والدتي أنني كتاب مفتوح لها ، هل الكل يعلم سري لا أدري لكنني لم أعد أفهم الحياة جيدا بل لم أكن أفهمها من قبل ربما كان النقاب هو ما يمنع عيني من رؤية الجانب الآخر فلم أكن أرى سوى أدهم

تابع الدكتور :

- هيا إلى درسكم العملي لن أطالبكم اليوم بشيء ارسموا ما تشاءون أطلقوا ارواحكم من حبسها و حلقوا مع ريشاتكم عاليا و هاتوا من السماء لوحة تعبر عما بداخلكم هيا اذهبوا .

الكل يقف أمام لوحاته البيضاء و لن يلبث أن يلطخ ذلك الابيض بألوان قد تدنسه مثلك يا أدهم كنت كتلك اللوحة البيضاء ساذجة تنتظر الألوان بفارغ الصبر حتى تلطخها ظنا أن الألوان تزين الحياة ، و فهمت كتلك اللوحة أي غبية أنا .

حسنا فلأحاول أن أضع بعض الدنس على تلك المسكينة الحمقاء حتى لا أكون الغبية الوحيدة هنا ، عانقت أناملي الريشة و أغمضت عيناي عملا بحكمة الدكتور الفيلسوف كيف يمكن صناعة النور من الظلام أنها محض هرطقة فلاسفة

فلأقنع نفسي بعض الشيء ، الآن أمامي ظلام و لوحة بيضاء ، ظلام ينتظر من داخلي النور ، ولوحة بيضاء تنتظر من يدي الدنس ، الروح تصنع النور و اليد تصنع الدنس .

فتحت عيوني نظرت للجميع الكل بدأ في الرسم ، يا لي من غبية هل أنا الحمقاء الوحيدة هنا التي لا تملك توازنا بداخلها حسنا

فلأصنع لوحتي الخاصة و أدع ريشتي تقودني ربما هي وصلت للوحة التي تعبر عما يجول بخاطري

فلأرسم

إني أرسم طاولة بليارد خضراء لكن كراتها هي قلوب ، هناك بعض الدماء متناثرة فوق الطاولة و هناك ملاك له جناحان يمسك بالعصا التي في آخرها سكين ليوجهها نحو أحد القلوب و بجوار الملاك هناك شيطان يشير له نحو الهدف ، بينما في الخلفية هناك مسرح كبير تقف على خشبته فتاة يبدو على ملامحها الحزن و هي تغني أو ربما تصرخ لا أدري هذا ما رسمته يدي و رضت به روحي و انتهيت و لم أنتبه لعادل القادم من خلفي الذي كان ينظر لما أرسم بعيون متعجبة قبل أن يقول :

- حين يلعب الملاك ضد الشيطان ترى من سيربح؟

أجبته بهدوء :

- لن يربح احد لأنهما دائما في نفس الفريق

زاد اندهاشه لكنه قال :

– يقولون أن البليارد لعبة تعتمد على التركيز لذا يستوجب الهدوء فكيف يجيد اللاعب و صوت تلك الفتاة التي تصرخ في أذنيه بالتأكيد هو لن يجيد اللعب

أجبته أيضا بهدوء :

– بل إنه يجيد اللعب جيدا فهو لا يسمعها على الإطلاق هي تصرخ و هو لن يسمع

قال لي :

- أتدرين أنتِ عبرتي عما بداخلي بلوحتك العبقرية تلك فأنا ارى شعبا يصرخ ، و شياطين بثياب الملائكة يوجهون عصيهم نحو القلوب فإما أن يلقونها في الحفرة أو تتناثر الدماء على أرضنا الخضراء ، أعتقد أن أفضل اسم لتلك اللوحة هي صرخة شعب

ابتسمت له قائلة :

- هكذا هي اللوحات تثير في نفوسنا الأحاسيس المختلفة فما تراه أنت هكذا ربما أراه أنا من جانب آخر يختلف و ما تراه عاما ربما يراه غيرك خاصا بهم

قال :

- أعلم ذلك جيدا ، بل لهذا أعشق الرسم فهو دوما يمنحك الأجنحة لتحلق في الأفق نحو الخيال ، لكن ماذا ستسمين تلك اللوحة ؟

نظرت نحو اللوحة بعين متأملة لماذا لكل شيء اسم لماذا لا تترك هكذا تفهمها بلا اسم تشعر بها بلا خاطر تحلم بها دون أن تنام لكن لكل شيء اسم و هذه هي حياتي يجب أن تحمل اسما

قلت له دون أن تفارق عيني اللوحة : أوبرا البليارد

راقبت الدهشة على عينيه من جراء ذلك الاسم العجيب فبادرته قائلة : وأنت ماذا رسمت؟

قال لي : تعالي بنفسك و انظري

كانت لوحته هذه المرة مرعبة شمس تقاوم الغيوم لتطل بإشراقة حمراء كأنها محتضرة أو عائدة من الموت و على الأرض شجرة تساقطت أوراقها و أرض متشققة بينما هناك العديد من مصاصي الدماء عاليهم نظرات الرعب يحاولون إخفاء و جوههم عن نور الشمس التي تحرقهم

قلت له : كم هي مرعبة

- الحياة أكثر رعبا يا عايدة . أنا أراها حالمة بالنسبة لما نحياه

ابتسمت له يبدو أنني لست وحدي التي أرى أن الحياة بائسة ، نعم ابتسمت و ضحكت نعم أعترف بهذا هذه أول مرة تغازلني فيها الضحكة منذ رحل أدهم قلت له : و ماذا ستسميها

ظل يفكر قليلا ثم قال : لا أعلم ربما (طاقة حلم) تفي بالغرض .

غريب أمر (نيويورك) ، طوال العام و أنا اشعر ببرودتها التي لا تتوقف لا يوجد دفء في نيويورك إلا في أكثر يوم تتساقط فيه الثلوج عليها ، يوم عيد الشكر ، في ذلك اليوم تتجمع فيه الأسر تعود الذكريات لتحمل طابعا مختلفا عن حضارة و ذاكرة شعب لا تتخطى بضعة المئات من الأعوام ولا تظهر إلا في ذلك اليوم .

و في ذلك اليوم تجمعت الأسرة كاملة في المنزل جورج كاسيدي و جوليا و ابنه و يليام و زوجته ليز و العم جو ، كان يوما رائعا فالاستمتاع بجو الأسرة المترابطة بعد عام كامل من التفكك يجعل لذلك اليوم مذاق خاص تبادل الجميع الهدايا ، جوليا أحضرت لي يومها من محل التذكارات كرة مائية بداخلها تمثال حرية و قالت لي برقة :

- عيد شكر سعيد يا آدم ، تفضل حتى إن عدت لمصر فليبق معك شيء يرمز للحرية تمتلكه ، حتى و إن كانت مجرد كرة مائية تزين مكتبك .

كان العشاء في ذلك اليوم دافئا الأيدي تتكاثر على الديك الذي يتوسط المائدة ، وقف ويليام قبل بدء العشاء رفع كأسه عاليا و قال :

- في نخب أسرتنا السعيدة ، ابي جورج كاسيدي الذي علمني أن الفرصة إن لم تغتنمها لن تعود و عمي جو الذي علمني الصيد ، و أختي الصغرى جوليا أفضل من يجعل الطائرات الورقية الملونة تتطاير و يحملها الهواء و زوجتي الحبيبة ليز من عرفتني أن بداخلي حلم ، و في نخب المصري الذي يزين مائدتنا و إن كان لن يشاركنا الشراب ، في نخبكم جميعا حفظ الرب أسرتنا .

احتسى الجميع الشراب و أنا أراقبهم و أفكر في الطائرات الورقية التي تزين السماء الأحلام التي تهرب من الأرض لتعانق النجوم أفكر في جوليا التي استطاعت ان تجعل من نيويورك الباردة حلما دافئا لي، هل هو العشق يطرق بابي من جديد؟ وهل كانت عايدة مجرد أوهام ، لا أدري فقط أشعر أن شيئا ما ينتزعني .

دعتني جوليا للذهاب معها لقضاء ليلة راقصة في تلك الليلة الثلجية الدافئة حاولت الاعتذار و تعللت بأنني لا أجيد الرقص

قالت لي :

- الرقص ليس منهجا للتعلم هو فقط شعور بالحرية حرر نفسك من قيود الزمان و المكان و دع روحك تتناغم مع الموسيقى حينها سترقص طالما أنت حبيس مادياتك لن ترقص

وافقت بالطبع من ذا يمكن أن يرفض دعوة قدمتها له فينوس ،ذهبت للملهى الليلي ، لأول مرة أرى ليلا مختلفا لنيويورك ليلا بدون محطة الوقود ، أو طاولة البليارد ، ليل بلا استذكار للدروس ليل بلا أدب أمريكي ، ليل هو الوجه الآخر الذي لم يسبق لي رؤيته ، المكان غريب إضاءة خافتة مسلطة فقط على المسرح ، بارا لا يقدم إلا المشروبات الكحولية و قوم يترنحون إما من فرط الشراب أو تناغما مع الموسيقى ، كيف لمثل هؤلاء المترنحون أن صاروا أكبر قوة في العالم لست أدري ، رفضت كل عرض لها بأن أشاركها الشراب ، قالت : تحرر من القيود ، انفض عن نفسك الأغلال و طر معي في الفضاء

رفضت أيضا قلت لها : بلا عقل لن أشعر بلذة ، و إن شعرت فلن أتذكر

ضحكت ضحكة مجلجلة : بالعقل لن تعرف معنى السعادة فالعقل يقيدك في الأرض و السعادة في الفضاء اشرب و ارحل معي إلى الفضاء

رفضت و أصررت على رفضي لكنها لم تبال أمسكت برسغي و صعدت بي إلى المسرح ، الموسيقى صاخبة الكل يتمايل يترنح يتناغم مع الموسيقى أما أنا أشعر بدوي الموسيقى في أذني الصداع بدأ يتملكني لكنها اقتربت من أذني شذا عطرها يتسلل إلى أنفي فيتملكني سحرها و هي تهمس لى بلطف قائلة : فقط قل لعقلك أن يعطيك بضع دقائق للجنون ، ارحل معي إلى الفضاء انظر للطائرات الورقية تغزو السماء ألوانها براقة كلون ثمار الفواكه التي تزين بساتين الجنان ، انطلق معي للجنان السماوية و ارقص ، بل لا ترقص ، فقط استسلم للموسيقى دعها تغمرك و حينها سترقص

سحر عطرها و جنون حديثها أزالا من نفسي كل قيد يربطني بالحياة على الأرض انطلقت معها نحو الطائرات الورقية البراقة أهيم معها في فضاء سرمدي فضاء يحمل الفراغ إلا منها تمايلت ترنحت اهتززت ، طاولة البلياردو تحولت إلى فضاء و كراتها إلى نجوم و العصا تحولت لذراعها اللين بينما أنا لست موجود فقط أذوب لا أشعر بما أفعل الموسيقى و عطرها يحملاني بلا جناح نحو الحلم ، الحلم في أن أرى الكون من أعلى النجوم ، كم أنت صغير أيها الكون هناك ، أقدامي تتقدم و تتراجع و يدي تحظى بيدها و هي تدور و تدور حول نفسها أمامي كقطعة حلوة أشعر أنني أمتلكها ، جوليا أنتِ لي ، أقربها فتتفجر الغرائز بداخلي و أهم بتقبيلها فتبتعد ثانية و أشعر بالأسى ، فتقترب ثانية ليعود لي نفس الإحساس ثم تبتعد ، هكذا هي قواعد الرقص ، اقتراب و ابتعاد و دوران حتى تتوقف الموسيقى ، و عندما تتوقف الموسيقى هل يتوقف الحب؟

هكذا قالت لي ، أنتوني بانوتشي قصة حب خلال مقطوعة موسيقية فهل أكون انتوني بانوتشي آخر لا أنتِ ملكي ، أشعر بذلك

لذا حين توقفت الموسيقى التف ساعدي حول خصرها و تقارب فمي من فمها و أودعتها قبلة تحمل معها أسراري قبلة بين طياتها بعثت روحي لتسكن بها ، توقعت أن تتملص

توقعت أن تحاول الهرب ، لكنها بدلا من ذلك استسلمت لها بل بادلتني التقبيل، أهو الخمر ما فعل بها ذلك أم أنني قد رقت لها ؟

جوليا لقد أيقظتِ إحساسا بداخلي لم اكن أعلمه يبدو أن حبي لكِ لن يتوقف مع أي موسيقى

قضيت تلك الليلة محلقا في السماء أهيم تذكرت مقولة لكويلهو (إن سر السعادة هو أن تنظر إلى كل روائع الدنيا دون أن تنس أبدا نقطتي الزيت في الملعقة)

كلا أيها العزيز كويلهو السعادة أن تطلق سراح غرائزك و تهيم بلا قيود السعادة أن تتلاشى الملعقة بالزيت بينما أنت في الفضاء تسبح مع جوليا الجميلة ترقص معها بين النجوم ، تبتسم هي فيقتبس القمر من ابتسامتها نوره ، السعادة سيدي كويلهو هي أن لا تشعر إلا بروائع الدنيا و تنسى فيها و معها كل شيء ، و لا شيء أروع من عيون جوليا .

استسلمت للنوم مؤملا نفسي بأنها ستكون معي حين أغمض عيني ، معي هناك حيث ارض الأحلام الخضراء التي تطرح أطاييب الإحساس فأنا روحي معلقة بها ، فكيف لي ألا أراها .

و حلمت نعم حلمت تلك الليلة رأيتني أجلس مع (عايدة) تنظر لي نظرة تعني أنها تعلم أنني قاتلها و هي صامتة مستسلمة ، تركتني أنزع قلبها برضا و عيون دامعة ، و اتركها بعيدا و ارحل حيث تجلس (جوليا) أعطيتها قلب (عايدة) قائلا : جئتك بقلب طاهر قلب يحملني فيه

ابتسمت كعادتها و ألقت القلب على الأرض دهسته بأقدامها و اقتربت مني و قبلتني قبلة ساحرة

و قالت : دعك من القلوب ما هي إلا هراء .

أيقظني من ذلك الحلم الرائع رنين الهاتف إنه (جون) قال لي : سامنتا عادت لنيويورك

- سامنتا عادت؟ كيف؟

- تعاقدت مع قناة كبرى في نيويورك و تعد لبرنامجها الذي ستذيعه من خلالها اسم البرنامج (يوميات مغترب في أمريكا) اقترحت عليها أن تكون أنت ضيف أولى الحلقات فما رأيك
- رأيي؟ هل هي عادت إليك؟
- انتهت قصة حبنا و صرنا صديقين
- هكذا ببساطة؟
- و ماذا في الحياة يستحق التعقيد ؟ أصدقك القول أنا ما زلت أعشقها أتمناها لكن يكفيني أن أظل بجوارها تكفيني ابتسامتها لا أريدها أن تعود إليَّ إلا و هي تحمل في قلبها ذات العشق الذي أحمله ، أريدها سعيدة يا صديقي هل فهمت؟
- نعم أفهمك ، كم هو قاتل ذلك الحب
- نعم يا صديقي إنه حب قاتل

ثم صمت قليلا و استطرد : هل ستقوم بذلك من أجلي و تكون ضيف الحلقة فتكون علتي كي أحضر معك و أراها و هي تعمل عن مقربة

ابتسمت و قلت : لا أستطيع أن ارفض لك طلبا فأنت صديقي الوحيد هنا

6- مثلث الكرات

في اليوم الموعود لتصوير البرنامج كنت قد اخترت مكانا بالقرب من تمثال الحرية للتصوير حيث موجات المحيط الزرقاء تعانق السماء على مرمى بصرك و هي تقف شامخة حاملة الشعلة بيدها ترفعها لأعلى كأنها تقول لا شيء أعظم مني في الحياة أنا الحرية ، أعشق ذلك المكان الذي يبث في داخلي الطاقة لبذل كل ما في من أجل أن أبلغها .

هذه أول مرة أرى فيها (سامنتا) كانت مكسيكية لكنها باهرة الجمال خمرية البشرة ظلماء الشعر كالليل أما ابتسامتها بالتأكيد هي سر نجاحها كمذيعة الآن علمت يا صديقي لما أنت شغوف بها

كانت (سامنتا) برفقة فريق التصوير قد أعدوا كل شيء للتصوير ، و كانت (جوليا) مع (جون) برفقتي كي يبثا بداخلي الطمأنينة و نبذ رهبة التصوير . راقبت (جون) مرتعد كورقة يهزها النسيم و هو يختلس النظر ل (سامنتا) بين الحين و الآخر ، أما (سامنتا) فلا تلقي له بالاً فقط تعد الحلقة و ترتب الأسئلة ، أما (جوليا) كانت تقف بجواري تهمس لي : لا تخف كل من هنا أتى من أجلك أنت ، و من أجلك فقط

حين بدأت الحلقة شعرت بارتباك شديد رغم جرعة جوليا الحماسية إلا أنها تطايرت حين قال المخرج أننا على الهواء مباشرة

ابتسمت (سامنتا) ابتسامتها الساحرة التي تسلب الألباب و قالت :

- مرحبا أمريكا ، في البدء أحب ان أوضح لكم فكرة برنامجنا الجديد ، إنه عن المغتربين الذين تركوا بلادهم من أجل الحلم الأمريكي ، فأمريكا العظيمة تفتح ذراعيها دوما للحالمين الطامحين ، اليوم سنلقي الضوء على أحلام و حياة مغترب من الشرق الأوسط و بالتحديد مصر و أيضا هو مسلم نحاول أن نفهم لماذا قرر القدوم إلى أمريكا و نفهم أكثر عن بلاده و حياته فلنرحب بالأستاذ أدهم عرفنا بنفسك سيدي

حين تحولت عدسات المصور نحوي بلغ الرعب مني مبلغه فرميت نظرة نحو (جوليا)استمد منها القوة قبل أن أقول :

- أنا مصري أتيت لأمريكا كي أقوم بدراسة الأدب الأمريكي و اسمي (أدهم يوسف البابلي) لكن هناك من يناديني آدم و كم أعشق ذلك الإسم

ابتسمت (سامنتا) قائلة : آدم؟ لكن آدم خرج من الجنة

الرهبة بدأت تزول عني حين تعمقنا في الحديث فاستطردت :

- نعم خرج من الجنة حين أكل التفاحة و نفذ أمر حواء و هبطا للأرض فأتيا بالجنة معهما للأرض ، ربما هو فعل المعصية لكنه حين أطلق غرائزه و فعل ما حُرم منه بالتأكيد شعر بتلك اللذة ربما كانت لحظة سعيدة لا يدانيها لحظة إلا حين ترقص و تستمع للموسيقى فتنطلق تلك الغرائز حرة

تعجبت (سامنتا) :

- هل أنت مسلم حقا هذا ليس ما يقوله المسلمون؟

بهدوء أجبت :

– نعم أنا مسلم لكنني لا أتحدث عن الإسلام أنا أتحدث عني

ابتسمت (سامنتا) و قالت :

– عنك؟ من أنت؟

- شاب مصري يعشق البلياردو ، هل تعرفين البلياردو ؟ بالتأكيد تعرفينها في بداية اللعبة نضع الكرات على هيئة مثلث ثم نصوب في إتجاهها كي تدخل إحداها الهدف ، هكذا الأحلام توضع كمثلث الكرات و نسدد نحوها على أمل أن يتحقق أي حلم منها لكن في أغلب الأحيان لا يصل أي حلم للهدف فنظل نضرب و نضرب الكرات ، أمريكا يا عزيزتي مثلث أحلامي أتيت لأحقق إحداها

ثم نظرت نحو المحيط و رددت قول ايميلي ديكنسون : نهري إليك يجري أيها البحر الأزرق فهل سترحب بي؟ نهري ينتظر جوابا . آه ايها البحر. انظر إليَّ بعين العطف ، إليك سوف أسوق الجداول من الزوايا المرفطة ، ما قولك أيها البحر ، خذني .

قالت : و هل حدث؟ هل تحقق أحد أحلامك؟

أجبت : نعم تحقق ، فهمت أكثر عن السعادة عن الحرية عن الطائرات الورقية عن الحياة عن البحر فهمت كيف أستطيع أن أمسك النجوم بكفي و أحملها في جيبي لأنني قوة خارقة تستطيع الطيران.

تعجبت سامنتا أكثر و قالت : لا أفهمك

ابتسمت و قلت : دعكِ مني فأنا لا أفهم نفسي فكيف تنتظرين مني أن أُفهمك إياها ؟

ألقيت بنظري تجاه (جوليا) لمحت دمعة تترقرق من عينيها هذه أول مرة أرى دموعها اندهشت و انقبضت أردت أن اذهب إليها لكن البرنامج على الهواء

انتزعني صوت (سامنتا) و هي تقول : حسنا فلنتحدث عن شيء آخر ، مصر كيف تراها ؟

قلت لها : مصر بسمة حزينة ، مصر شعب معدنه نفيس لكن ظاهره ميت قتله الروتين و قتلته الحياة الصعبة في مصر حين تصوب نحو مثلث الكرات كرتك لا تصل أبدا للمثلث تجد آلاف السدود على الطاولة لا تستطيع إجتيازها ، في مصر الحلم ممنوع فهو قاتل ، الحلم عقار سام حين تتجرعه فأنت تنتحر.

اندهشت قائلة : يبدو أن الحياة قاسية

اكملت : أكثر مما تتصورين هناك في مصر التماثيل في كل الميادين ربما ترمز للحضارة لكنها بلا حياة .

سامنتا : حدثني عن نيويورك كيف هي و كيف أهلها ؟

قلت : كنت اشعر فيها بالبرد لكنني وجدت فيها أشياء دافئة كثيرة ، أما أهلها فأمرهم عجيب في النهار تظن أنهم لا يعرفون غير العمل لكن ليلا هم بلا عقل فقط يترنحون ، ربما فهموا حقيقة الحياة اعمل لكن لا تسجن ما بداخلك ، أطلق غرائزك و انطلق خلفها ، ما دمت لا تؤذي الآخرين فافعل ما شئت و لا تلم إلا نفسك إن سجنتها في قفص حديدي

سامنتا : سعدت بارائك سيد (أدهم) و إن كنت أراها غريبة كونك مصري

أجبت : كونكِ في حضرة السيدة (حرية) فأنتِ مِلكُها و هي سيدتك

سامنتا : هل فقط السيدة حرية (و أشارت للتمثال) من غيرتك ؟

قلت مبتسما تعلو عيني نظرة عشق : لا ، (جوليا)أيضا صنعت مني شخص جديد

ابتسمت (سامنتا) : آه من العشاق ، اشكرك أستاذ (أدهم) أسعدني تواجدك معي ، في النهاية جمهوري الحبيب كان معي نموذج غريب من الشرقي المتفتح الذي يفهم حقا ماذا تعني الحرية نموذج انسلخ عن القهر في بلده كي يصل للحلم و يحياه . أرجو أن تكونوا استمتعتم بالحلقة كانت معكم (سامنتا هيرناندیز) إلى اللقاء .

حين انتهت الحلقة التفتت نحو (جون) وجدته لم يرفع عينيه عن (سامنتا) حتى بعدما صمتت فتركته يتمتع بلحظات الهيام و كي تكتحل عيناه بمحيا معشوقته ، و ذهبت نحو (جوليا) مررت أناملي على وجنتيها برفق بقايا الدموع كالندى فوق زهرة نيسانية غضة ثم وضعتُ إصبعي في فمي ليختلط ماء عينيها بريقي فيمتزج المائين بداخلي و ابتسمت لها لم أفهم سر بكائها وقتئذٍ ، قالت لي : كيف تغيرت مفاهيمك بتلك السرعة؟

قلت : يكفيك أن ترى طائرة ورقية واحدة تسابق الطيور حتى تتمنى أن تكون مثلها ، و أنتِ يا عزيزتي لستِ مجرد طائرة عادية بل أنتِ الطائر نفسه يحلق بعيدا فوق السحاب و يلثم الشمس دون أن يخشى حرارتها لذا تمنيت أن أطير معك نحو الشمس.

ترقرقت دمعة أخرى من عينيها التي صارت دافئة أكثر ثم شعرت أنها تستجمع قوة خفية بداخلها قبل أن تقول : آدم ، هل تتزوجني؟

تعجبت و اندهشت بل صدمني سؤالها حتى لزم لساني الصمت الآن يا أدهم يتحقق حلم الصبا و المراهقة فينوس تريدك زوجا ، الآن تصبح إلها رومانيا تغارك الآلهة فأنت من اختارتك جميلة الجميلات ، لكن لماذا أنت لا تشعر بالسعادة الكاملة، ما سر التوتر و الخوف الممتزج بالفرحة الذي يغمرك ، لماذا خفت؟

قلت لها : أليس الزواج قيدا ؟

قالت : دعنا نتمرد على الحرية حتى لا تقيدنا .

ثم أحاطت بي ذراعيها المرمريين ، ووضعت رأسها على صدري فعرفت أنها لي و أنني لن أكون إلا لها ، عزيزتي جوليا أعشقك بل أنتِ كبرعم نما بداخلي و صار شجرة ظليلة ،

فروعها و أغصانها صارت تتحكم بي، هل هذا هو ما يسمى بالعشق؟ فماذا كانت علاقتي بعايدة؟

لا يهم فقط أنا سعيد أشعر أن إحدى كرات المثلث عانقت الهدف

وجه (ياسمين) الصبوح الضاحك يغريني دائما أن أبتسم ، أتمنى يا عزيزتي أن أكون مثلك ، أن أؤمن أن الحياة لا تستحق إلا إبتسامتك ، أود أن أسألك عن آخر مرة بكيتِ فيها عن آخر مرة غضبتِ ، بالتأكيد حزنتِ يوما ما و ربما أياما كيف كل ذلك لم ينل منكِ ، (ياسمين) كإسمك هي ابتسامتك تفوح من زهرة يانعة لتجبر الجميع على معرفة الجمال ، أرجوكِ ابق مبتسمة من أجلي ، هكذا كنت أحث نفسي و أنا أجلس معها في كافيتريا الكلية و هي كانت تتحدث عن أشياء مختلفة و أنا لا أسمعها فقط أراقبها أحاول أن أكون مثلها راضية مبتسمة و طفلة .

قاطعتها قائلة :

– ياسمين ، من أي بستان تأتين بهذه البسمة؟

قطبت حاجبيها و نظرت نحوي بتعجب قائلة :

- ما هذا السؤال الغريب

كم أنا غبية ما هذا السؤال الذي سألته لكنني اكملت :

- آسفة لا عليكِ دعكِ من سؤالي و انسيه

نظرت لي مبتسمة هادئة و قالت لي :

– عايودة ، أنا أعرفك جيدا أعلم أنك تمرين بظروف عصيبة ، أعلم كم تقاسين أرى في عينيكِ رعب و خوف و حزن ، البعض مثلك يرتدي نقابا كي يخفي أوجاعه لأنها تمتلك ملامحه و البعض مثلي يكبت أوجاعه و يضغطها داخل قلبه و لا يجعلها تظهر على ملامحه لكن من هو مثلي حين يتوقف قلبه عن الاحتمال ينفجر فيضيع معه ، لحظة الانفجار ستكون عصيبة يا صديقتي ، تظنينني طفلة ، ربما كنت طفلة ، وجه طفلة ، ضحكات طفلة ، مداعبات طفلة ، و قلب أنثى عجوز ممتلىء بالكثير من الذكريات

المضغوطة و الملامح المشوهة ، عايودة ربما تغبطينني لابتسامتي و لكن اعلمي أنني أغبطك لأنكِ تمنحين حزنك متنفسا .

شعرتُ بالضيق عليها بل شعرت بالضيق من نفسي كأنني أول مرة أراها أو اسمع ما تقول كم كنتُ أنانية لا أرى إلا أدهم و لا أستمع إلا لأدهم ، كم كنت غبية حين لم اعرف أن أدهم ناقوس يدق و رنينه يصرخ في أذني يمنعني عن الاستماع لغيره ممن مروا في طريقي حتى إن كانت صديقتي ، آه يا (ياسمين) كم قصرت في حقك كم كنت حمقاء ، كم أود أن أعانقك و أربت على كتفيكِ و أقول لكِ يا صديقتي لا داعي لأن تكبتي الأوجاع أو تنتظري لحظة الانفجار هناك من يستمع لكِ و سيبقى معكِ دائما سنوواتي الشقية بعد اليوم لن تأكلي ثمرة التفاح المسمومة بصمت و تفقدين الوعي وحدك هناك من سيشاركك القلب و ينظفه .

ابتسمت لها حاولت أن أهدىء روعها و أربت على كتفيها حتى لمحته قادم نحونا بنحوله الشديد و عيناه الصغيرة المختفية خلف عويناته الغليظة و رغم صغرها إلا أنها تستطيع أن ترى جمال الأشياء المكنون و تشعر بسحر الجنون نعم إنه (عادل) حاملا بعض الأوراق جلس بجوارنا على نفس الطاولة و أخرج لوحة من بين أوراقه و نظر نحوي قائلا : عيناكِ مثل تلك العينين تحمل سراً دفيناً

نظرت للوحة وجدت وجه فتاة يختفي وراء نقاب و لا يظهر منه سوى عينين بداخلهما سماء صافية تظلل أهرامات ، بينما النقاب يعلوه الكثير من التراب و تبدو عليه القذارة .

نظرت نحوه بدهشة ماذا يقصد بأن لي مثل تلك العينين ؟ هل هي مغازلة ، لا أدري لكنها مغازلة راقية أن أتشبه بمصر ، نقاب قذر يحيل جمالها إلى عبوس و شبابها إلى شيخوخة لكن تظل عيناها قبلة السحر ، هل عيناي ساحرتان؟

أكمل قائلا : لا أعرف لماذا رأيت في عينيكِ نيلا يحمل دموع شعب و يجري بها ليلقيها في بحر من الآلام دموع تذهب سدى .

صمتت و دهشتي تتحول إلى صرخة مكتومة بداخلي هل أمري قد كشف لكل من حولي ، هل يرون مجرى دموعي و مصبها دون أن أعلم؟

ارتبكت قليلا و حاولت أن أغير مجرى الحديث قائلة : وهل للشعب دموع؟

هذه المرة هو من كان أكثر اندهاشا نظر نحوي كأنه ينظر إلى شبح عاد من الموت و قال :

- أتعجب كيف لمن هو مصري ألا يشعر بكل تلك الدموع التي تغرق فيها؟ كل تلك الأحلام التي تطأها الأقدام؟ كل تلك الأفواه المكممة ؟ لا تسأليني يا صديقتي عن دموع الشعب فالشعب ليست لديه رفاهية الدمع ، الدموع عزيزة عليه ، انظري إلى جيرانك تجدين أشباحا نعم أشباح ، الضيق حولهم لأشباح لا يستطيعون أن يلمسوا الجمال المختبىء في تلك البلد كأنهم من عالم مختلف و من بُعدٍ آخر .

رفعت عيني نحوه و تأملته هذه أول مرة أرى فيها عادل يتحدث معي كل ذلك الحديث ، هذه بالتأكيد أول مرة آراه بل هذه ربما تكون أول مرة أعلم أنني كنت شبحا مقيدا في أغلال (أدهم)

قلت له : و ما الجميل في مصر؟

ابتسم قليلا ثم قال : الجميل فيها أن تلك الدموع رغم كثرتها لم تنل من عينيها .

ربما لم تنل من عينيها لكن نالت من عيني ، تعجبت من حديث عادل حتى عدت للبيت في تلك الليلة ناجيت سنووايت و حدثتها كثيرا عني كم كنت حبيسة ؟ كم كنت نائمة في كهف مظلم ؟

صفعة واحدة على وجهي أعلمتني أنني مجرد حلم آخر يوطأ بالأقدام و يتحول إلى لا شيء ، صفعة واحدة أفهمتني أن مصر بها كثير مني .

ياسمين صديقتي لم اكن أعرفها كنت في غوايتي أعيش ،كنت أظن أن الشمس لن تشرق لأن أدهم رحل

كم أكرهك يا أدهم ، كانت غشاوتك تعميني و كلماتك تأسرني و نظراتك تسحرني و أنتقل معك إلى كوكب آخر هناك حيث شجرات التفاح تظللني

فتقطف لي ثمرة تضع عليها بعض من سمومك الشهية و تقدمها لي و بنهم التهمها فهي منك ، آه كم أعشق السم الشهي ، آه كم أعشقك يا أدهم لماذا رحلت؟

بل أكرهك ، حقا لا أدري ظننتني نزفتك لكنني اكتشفت أنني إن نزفتك نزفت معك حياتي ستظل باقيا بداخلي لا أمل لشفائي ، كيف أكرهك و أنا لا أحمل من ذكرياتي إلا لحظاتي معك.

يا الله كن رحيما بي ، آه يا سنووايت كم هي شاقة الحياة حين تدمنين السم و لا تجدينه ، آه يا دموعي المتساقطة التي تبلل وسادتي تذكرني بصوتك يا عادل و أنت تقول أن الدموع لم تنل من عيونها ربما صدقت لكنها تنال من روحي ، يا الله ارزقني العزم حتى أشفى منه.

7- سـور الـطـاولـة

كالعادة رنين المنبه ينبىء بيوم جديد ، شجون الليل تتطاير في إشراقة شمس الصباح ،و تفزع من ناقوس المنبه الذي لا يتوقف عن الرنين أنا كائن مختلف بالنهار ، لماذا لا تشرق الشمس طوال الوقت ؟ لماذا تقرر المغيب و تتركني دون سلاح أمام (أدهم) ، كيان أعزل أمام كينونة شرسة تنهش الروح و تفتت العظام هكذا هو الليل ، أما النهار فقطرات من الماء تغسل الدموع و تذهب بالعقل بعيدا حيث انشغالات اليوم ، كيف يكون ليلي كنهاري ، كيف أهرب من السور الذي يقيمه أدهم حول روحي كل ليلة ، هدم الأسوار يحتاج إلى معاول ، و أنا كائن أعزل مسالمة أسيرة استسلم لذلك الشبح كل ليلة و هو يجثم على صدري و يطارد أحلامي فلا يتبقى مني إلا كابوسه و دموع الأحلام لو علمت كم هي مريرة لما دعوتها على العشاء من البداية ، الأحلام الوردية هي وحوش ترتدي ثياب الملائكة و الأرز باللبن مصنوع من سم شفاف لا ترى منه إلا لونه الأبيض .

فلأنفض عني كل عذابات الليل و لأبدأ نهار جديد يلهيني و أتمنى أن يطال النهار ليلي فيأسرني في حلم آخر ، نعم حلم آخر و أرز باللبن مسموم جديد ربما أدمنت السم و ربما لا يقل السم إلا السم ، لا علاج للأحلام إلا حلم يتحقق .

من هنا قررت الانشغال بالنهار ما يئد عظامي بالليل فأنام مرهقة غير عابئة بالأحلام ، البحث عن روح جديدة تزين فراشي روح سنووايت التي تغدق على الأقزام بابتسامة تنسيهم دمامتهم .

عادل أخبرني أن النقاب القذر يغطي الجمال ، و العيون أصبحت كئوس من الدمع الدامي ، هل هذا هو الواقع الذي تهربين له يا عايدة؟

قاطعني عن شرودي دخول والدتي للغرفة ممسكة بأصبعها الذي يقطر دما ، ما لكِ يا أماه أنتِ أيضا تدمين مثلي ، هل شفرة الحياة الحادة نالت منكِ .

كانت تنظر لي تلك النظرة التي أعلم أنها تخترقني قبل أن تخبرني أن حبات الطماطم و هي تقطعها راوغتها فجرحت اصبعها بالسكين ، أشياء كثيرة تراوغنا فنُقطِّع أصابعنا من جراء تعجلنا .

قمت بإحضار العطر و وضعت منه على الجرح فابتسمت والدتي : الجرح يتعطر ليتطهر ثم أتيت بضمادة و شددتها على اصبعها ليتوقف النزيف فابتسمت والدتي قائلة : و بعد التطهير حزم.

ثم نظرت إلى إصبعها قائلة : ثم ننساه فيشفى تماما و يعود الإصبع لحالته الأولى

نعم يا أماه نتعطر فنتطهر فنحزم ثم ننسى هكذا تشفى الجراح

وصفة الطبيب ليست صعبة البداية أعطر دموعي بأن أذكر نفسي بجرمك ، فتتطهر دمائي منك ، ثم الحزم سيدي على الجرح حتى لا يعود بي الهوى إليك ،و في النهاية النسيان.

خطوات بسيطة لكنها قاتلة ، نعم يا أمي وصفتك قاتلة أي حزم هذا يفيد مع جرح غائر في أعماق الروح لو حزمته لماتت روحي.

آه يا أدهم ، أليس لعذابك منتهى؟

حملت أغراضي خرجت من المنزل سريعا أوقفت سيارة أجرة ، ألقيت نفسي على المقعد الخلفي الوثير ممنية نفسي ببعض الاحساس بالراحة.

حين سألني السائق : إلى أين ، صمتت هنيهة حتى أتذكر لماذا أنا هنا و إلى أين سأذهب ثم قلت : كلية الفنون الجميلة

و انطلقت السيارة تراوغ يمينا و يسارا تدور في الطرقات ، هناك إشارة مرور حمراء و السائق لا يتوقف ، لا شيء يوقفه عن السير ، الوجوه تتداخل و تمتزج خارج النافذة من جراء سرعتنا ، لماذا لا تكون هناك سيارة أجرة تقودنا إلى أحلامنا التي نريدها بلا توقف ، تقطع الطريق بسرعة تتداخل ملامح كل العوائق و لا توقفها أعراض الحياة القاتلة ، لماذا كنت أنت سائقي يا أدهم الذي ظننتك ستقودني إلى الحلم لكنني اكتشفت أنك ألقيتني على جنبات الطريق و مضيت وحدك لتصل إلى الحلم أنت لست سائقا أمينا أبدا ، لماذا هذا الصبح محمل بذكراك ، كنت أظنك لا تعتريني إلا ليلا ، يبدو أنني اسقط في بئر الجنون

أما لحالتي من علاج ، لا أدري.

أشعر كأنني محاطة بسياج سوداء هي عيونه ، تضيق و تضيق حولي إني أختنق .

اختنق فكل أنفاسي مدادها ذلك السواد الذي امتزج بروحي ، لم يعد السياج في الخارج بل إنه ينتشر بداخلي ليتملكني ،كيف السبيل للخلاص منك و أنا صرت مصنوعة منك

ابتسامات ياسمين الودودة لم تخفف عني كثيرا ، لاحظت شرودي فقالت لي :

– ابتسمي يا عايدة ، فكل شيء حولك إلى زوال و تبقى ابتسامتك فقط ، أتدرين حين أمرنا الدكتور بإغلاق عيوننا و أن نرسم ماذا رسمت؟ رسمت حصانا ناصع البياض له أجنحة عظيمة ، هل رأيتِ من قبل حصانا مجنحا؟ أنا رأيت ، لا تظني بي الجنون . فلأكمل لكِ رسمته يطوقني بذراعيه و هم ممسك بلجام الفرس بينما أنا امامه وجهي في عكس اتجاه الحصان ، وجهي صوب عينيه ، هل تظنين أن التحليق رائع ؟ ربما . لكن الغرق بعينيه أروع و رسمت هناك القمر ضاحكا و هو ينظر نحونا ، وانتهت اللوحة أو انتهى الحلم و عدت لأجد أن الحصان المجنح إسطورة ، و العيون المغرقة دوما كاذبة ، فأسقط على صخرة الواقع و أتحطم و لا يتبقى مني إلا ابتسامة نعم يا عايدة ابتسامة .

نظرتُ إلى الأميرة الأسطورية التي تغزل من أحلامها حياة تستغرق فيها فتغرق و أتعجب و اسأل نفسي من منا أكثر حماقة؟ الذي ظن أن الحياة قد تحقق الأحلام ، أم من ظن أن الحلم قد تدب فيه الحياة ، كلانا أحمق يا ياسمين ، الحلم و الواقع وجهان لنفس العملة عملة لا تشتري إلا شيئا واحدا شيء اسمه العذاب ، نحن يا ياسمين أسيرتي أسوار عالية نحن من حبسنا أنفسنا داخلها ، لم نحاول الهرب لكن يجب أن تستمر الحياة و نفر قبل أن تدهسنا عجلاتها ، نعم يجب أن نهرب ، لكن أين المفر ، لا مفر فمصر كلها ضحية نقاب قذر هو سور شاهق يحرمها من التحرر

اقتربت من عادل الذي كان يقف مع أحد رفاقه قلت له : لقد قلت لي أن تحت النقاب نبع الجمال الساحر ، هل يمكنك أن تريني ذلك النبع؟

نظر نحوي مندهشا و هم بالحديث لولا ولوج الدكتور لقاعة المحاضرة ، لنعود أدراجنا إلى مقاعدنا و نبدأ في تعلم درس جديد ، أتمنى أن يذهب بعيدا بي عن خواطري القاتلة

كم هو مرهق العمل في محطة الوقود ، غرباء وراء غرباء يمرون بك ينتظرون أن يتزودوا منك بما يكملوا به الطريق و أنت تمدهم بالوقود ، و أنتظر القادم الجديد ، هذه المرة كان القادم هو من يمدني بالوقود لأنه كان (جوليا) لم أتعود أن تزورني في مقر عملي ، لكنها فعلت هذه المرة ، ابتسامتها العذبة تنسيني إرهاقي ، قررت المكوث حتى أنتهي من عملي كانت تود مراقبتي و أنا أعمل ، كيف يمكنني أن اقوم بعملي و أنا في حضرة فينوس ، تذكرت مصر كيف يأنف الرجل من العمل في حضرة معشوقته خاصة إن كان عملا في محطة وقود ، لكن هنا لا أحد يأنف ، بل يمكن لابنة (جورج كاسيدي) – من يملك منزل به حديقة غناء – أن تحب عامل محطة وقود سلاحه ذلك الخرطوم الذي يمنح به السيارات الحياة بل و قد أقوم بتنظيف السيارات بنفسي فأطهرها من كل إثم تخطت عليه، نعم رائحة الوقود النفاذة بجسدي و بعض الدنس بملابسي هي ثمن بخس لمن يمنح الحياة ،أو من يطهر القلوب المظلمة ، لكن من يطهر قلبي من آثامه ؟

عايدة ، لماذا تأتين لي الآن و أنا في حضرة الملكة ، هل لأنني ذو قلب آثم لا استحقها؟

الدنس يا عزيزتي جوليا ليس على ثيابي ، الدنس بداخلي ، لكن الحب يجُب ما قبله و حبك صار يملكني ، حبك فقط سيطهرني ، و يمنحني الوقود اللازم لإدارة ماكيناتي و إنارة روحي .

الحب ؟ صرت أتحدث عن الحب ؟ هل آمنت به؟ لا أدري

لكن شيئا ما يختلج بأنفاسي و أشعر بنسمات لطيفة كلما لمحتها عيني ، جوليا أنتِ لي .

اقتربت مني جوليا بلطف و همست لي :

- ما رأيك أن نذهب لنلعب البلياردبعد أن تنتهي من عملك؟

ابتسمت و اقتربت أكثر كي أشتم رائحة أنفاسها فتعطر رائحتي النفاذة و قلت :

- يبدو أنني قد شفيت من إدماني للبلياردلا أشعر برغبة في اللعب .

يبدو أنها فهمت مغزاي من الاقتراب فابتسمت بدلال اكثر و قالت : لماذا؟

أجبتها و عيناي لا تفارق عينيها تبحث عن شاطىء بداخلها :

- ربما لأنني صرت أرى الكرات حبيسة الطاولة ، سور الطاولة يقيد حركة الكرات و يجعلها تتخبط أكثر و أكثر كرهت التخبط أريد الإنطلاق نحو هدفي، نحوك يا حبيبتي مباشرة ، أريد الهرب من القيد ، التحليق في الفضاء مع الطائرات الورقية التي تتراقص مع الريح على أهازيج الطيور .

ما زالت ابتسامتها الخلابة تزين محياها و هي تمسك برسغي و تقودني نحو سيارتها الرياضية التي بلا سقف و جلست بجوارها و انطلقت

انطلقت كالسهم المجنون نحو كبد الريح ، الهواء يضرب وجهي بعنف بينما هي تضحك بجنون و هي تقول :

- دع نفسك يا آدم للريح ، فلتحلق معها حتى لو كنت في عكس اتجاهها ، لا تسمح لها أن تقيدك لا أسوار تقيدنا بعد اليوم ، إلا سور واحد ، قلوبنا.

صارت (جوليا) تتحدث عن القلوب حقا إن الحب يصنع المعجزات ، كان الحب رقصة تنتهي بإنتهاء المعزوفة فصارت المعزوفة نابعة منه و الرقصة لا تتوقف فلنرقص يا طفلتي ضد الريح فلنمنح الريح بعض الفرح ،بالتأكيد هي تحتاج للفرح فهي محملة بالكثير من الهموم ، نعم كيف لم ألحظ سابقا فلسفة الريح؟

تجوب الآفاق تمر على الحزين فتمنحه بعض النسمات اللطيفة كي تواسيه أو ربما تصنع إعصارا حتى ينسى حزنه محاولا حماية نفسه ، و ترحل محملة ببعض حزنه ، الريح صديقة جيدة للبشر لكن البشر لا يفهمون .

نعم أيتها الريح أخيرا بعد رحلة عنائك ستجدين من يمنحك بعض الفرح.

وقفت داخل السيارة التي تنطلق بجنون ، رفعت يدي بمحاذاة كتفي صرخت بأعلى صوتي كمن أصابه مس من جنون قائلا :

- أيتها الريح قاوميني.

تعالت ضحكات (جوليا) حتى أنني لم أسمع غيرها رغم صوت المحرك العالي و دوي الريح إلا أنني لا أستمع إلا ل (جوليا) كانت حقا ساحرة عرفت كيف تسوقني للجنون .

الأشجار تطارد بعضها بعضا و تتابع في نسق ثابت منتظم لو قمت بقياس المسافات بين كل شجرة و أخرى تجدها مسافة ثابتة ، ككل شيء في أمريكا تحكمه المسطرة .

رأسي معلق فوق رقبتي أنظر إلى السماء الصافية ، الشمس تدنو من الغروب و تحاول الاختفاء عن عيون البشر ، أسراب الطيور تحلق في السماء ، ربما تبدأ رحلة هجرة جديدة تغزو بلادا بعيدة لم تطأها أقدام البشر ، ربما بلاد لا توجد إلا في السماء ، صرخت فيهم :

- احملونا على اجنحتكم معكم ، كي لا يعكر صفونا أحد .

تعالت ضحكات (جوليا) الطفولية و هي تخترق دواسة الوقود بقدميها و تنطلق بجنون ، ما أروع الجنون يا طفلتي الحسناء.

وصلنا إلى غابة منعزلة عن البيوت ،لا تظلنا إلا أغصان الأشجار الباسقة ، على الأرض فرشنا ملاءة و أشعلنا نارا في بعض بقايا الأغصان فالليل سيحل قريبا ، بل لن يحل أنما سيصعد الحزن من الأرض كسحب سوداء كثيفة فتصنع الليل، الليل لا يحل لكننا نصنعه ،جلست أنا بينما هي وضعت رأسها على فخذي ، و صرت أتأمل ذلك الرأس البديع الذي هبط من الجنة ، تلك البراءة التي لو حوت أهل الأرض لوسعتهم ، بينما أناملي تتخلل خصلاتها الذهبية الناعمة ، و تمسح وجناتها الندية ، فينوس أيتها الآلهة الرائعة ما حط بكِ على الأرض، كيف صرتِ كائنا بشريا مثلنا ، كلا أنتِ لست مثلنا . أنتِ يا عزيزتي مصقولة من معادن نفيسة ،معادن سماوية ، معادن ملائكية .

نورك البهي يا عزيزتي أزهى من تلك النار ، و أقوى من ضوء البدر ،ذلك الذي يجهد نفسه كل شهر ليفرد أجنحته الفضية معتقدا أن الأرضيين يفتقرون إليه، لا يدري المسكين أنما هو يعكس ضوء أرضية هي أنتِ ، لقد كان دائما ذلك البدر يحمل لي رسائل من (عايدة) ، أما الآن فهو لا يحمل إلا وجه فينوس الساحر.

كانت هي مسترخية تماما ، يفوح منها أطايب العطر ، تنظر إلى السماء حينا و تغمضها حينا ، و كنت أنا صامتا لا أريد أن أعكر عليها روعة هذه اللحظات بصوتي ، لكنها هي من قطعت الصمت قائلة :

– كم أعشق الشمس ، و أحب الليل ، هل أنا سيدة المتناقضات ؟ ربما ستظن بي ذلك ، لكنني لست كذلك ، فأنا من فرط عشقي للشمس أشفق عليها ، فهي تدور في فلك واحد ، لها وظيفة واحدة، روتين لا يتغير ، تركض من الشرق إلى الغرب دون تغيير، حتى يبعث نورها من الغرب للشرق ، لا تسأل كيف لكنها الحياة المتناقضة ، الشمس يا (آدم) تئن تصرخ تريد الفكاك من ذلك القيد ، فيأتي الليل ليرتفع الظلام من الأرض ، فتستطيع التخفي و الهرب ، حين تغفل عنها عيون البشر ، أما الليل فهو ظلام متصاعد منا يتعالى كالبخار ، فيترك فينا النور فقط .نرتقي نعلو نصبح نورانيين ، نحن شموس الليل الحقيقية ، أعشق الليل ففي سكونه أضيء .

كنت استمع إليها صامتا فلا يجوز في حضرة الملكة حين تتحدث هي أن تصدر صوتا ، صوتها الرقيق كآلة القانون الإغريقية في يد آلهة من الأوليمب ، تعزف به لتتساقط نغماتها على الأرض فتنبت أشجار الحكمة لتظللنا فروعها

- تقولين يا سيدتي أننا شموس الليل ؟ كلا بل أنتِ شمس العمر و غايته ، أنتِ شمس الليل و النهار ، و البشر كواكب معتمة في مجرة الظلام ، ينتظرون ابتسامتك التي تتساقط على وجوههم نورا فيرون الأشياء .

اعتدلت من رقادها على فخذي ، فاشتاقت ساقي إلى جسدها الرخو ، و رأسها الشمسي ، لكنها اقتربت أكثر مني ، لتمنحني عطر أنفاسها التي اختلطت بقبح أنفاسي و قالت:

- أحبك ، أنت القيد الوحيد الذي سمحت له أن يكبلني ، بل لن يكبلني (يزيننني).

شعرت بسعادة طاغية و أنا استمع إلى لفظة الحب تنطق بها شفتاها ، شعرت بأن النار التي أشعلناها بجوارنا تحرقني ، بل تستمد حرارتها مني ،و لا ارى شيئا في الوجود غير عينيها الخضراوين ، اقتربت منها اكثر لتمتزج الأنفاس أكثر فأنتشي من خمرها و نطقت دون وعي مني:

- بل أنتِ يا سيدتي القيد الذي لم أختره لكنه اجتاحني ، القيد الوحيد الذي استسلم له دون وعي .

ثم وجدتني أضع كفي حول رأسها فترفع رأسها لتتلامس شفتانا أكثر ، فامتص الخمر بشفتي ، فيصيبني الهذيان و الترنح ، و تمر أمامي صور من حياتي قبلها سريعا فلا تترك لي إلا صورة فتاة ساحرة ، تحتل القلب و الروح ، فتاة برية غير مروضة لا يقيدها قيد ، فتاة كالحلم تركض دون حد في أراضٍ قصية لا يصلها بشر ، فتاة اسمها (جوليا) و يصفها الأولون ب(فينوس) ، بينما كل الصور الأخرى تتلاشى مني كأنني أفقد ذاكرتي ، أو أن ذاكرتي أصغر من أن تحتوي شيئا آخر معها ، ماذا تفعلين بي يا (جوليا) ؟ صرتِ كل شيء لي ، و بدونك أنا (لا شيء).

8- العصا

الليل أنيس العشاق و جلاد المعذبين ، كل منا يرى الليل بعين تختلف عن الآخرين كل منا يكمن شعوره بالليل من داخله ، الليل مصدر السعادة و بدره المنير يعكس وجه جوليا الجميل و في نفس الوقت مصدر العذاب و بدره المنير يناجي قلب عايدة الحزين .

عايدة التي تذكرني ب (سيبل فين) تلك الممثلة التي كانت تعشق دوريان جراي ، كما رسمها أوسكار وايلد .

حين انحسر عنها سحر الفن الذي قهره الحب ، أعرض عنها دوريان جراي ليطأ على أحلامها المنثورة تحت قدميه .

هل أنا دوريان جراي؟ أخبرني أيها البدر ، هل تزداد الحياة روعة معي و أزداد نضرة و جمالا لأن روحي التي تختبىء بداخلي تزداد دمامة ؟

هل أنا قتلت (سيبل فين) و أوقفت عايدة عن الغناء و الرقص ، هل أزداد غياً؟

أخبرني ايها البدر أي ألم ذاك الذي يؤرقني في تلك الليلة التي كانت أسعد ليالي حياتي حين التهمت شفتاي العسل المتناثر على شفاه فينوسي الحسناء ،

لماذا العذاب يولد في تلك الليلة بالذات ، لماذا تتطاير الفرحة سريعا ؟

آه ايها الضمير ما الذي ايقظك الآن ؟ آه أيها الألم ما الذي ضخك بجسدي في تلك الليلة؟

دموعي تساقطت تباعا لتصنع في وجهي ممرات مائية تروي جفافه و تشققاته ، وجه نضر جاف كأرض كاذبة تسقى بماء مالح ، و أي ملوحة أشد من الدموع .

قلبي الماكر يحاول الهرب من أسر (سيبل فين) فيذكرني ب(جوليا) كم كانت خلابة تلك الليلة ، لكن تعود بي روحي و ضميري إلى مصر حيث عايدة حيث الألم و الخطيئة و نحر قلب بلا مبالاة.

كأن روحي تأبى أن تسمو مع جوليا لترتفع مع طائراتها الورقية بلا قيد ، هناك قيد الذنب و هل ذنب أكبر مما فعلته ب (عايدة) ؟

جوليا ، أنا لا أستحقك قد عاودتني جروح داخل قلبي كنت ظننتها قد اندملت و ذهبت بلا أثر حين عرفتك ، لكنني اكتشفت أنها بكِ تعود من جديد للنزف .

ارتفع رنين الهاتف في تلك الأثناء ، كأنه يقدم لي القشة التي قد تنقذني من الغرق في حربي الداخلية ، كان (جون) على الجهة الأخرى ، يطلب ان يراني في الصباح لأمر مهم ، آه يا (جون) لو علمت كم أنا أحتاجك يا صديقي ، كم أتمنى أن تدعمني بابتسامتك الصافية و قلبك الذي لا يعرف إلا الحب ل (سامنتا) ، فلأحاول أن أقتنص بعض الدقائق من براثن النوم في تلك الليلة العجيبة ، التي استهلتها فينوس بروعتها و ختمتها سيبل فين بعذابها ، و بدئتها كروميو و أنهيتها كدوريان جراي ، ليلة تعكس صراعي الأبدي و قيدي السرمدي الذي لن أقوى على التمرد عليه مهما وجدت الحرية ..... قيد الخطيئة .

في الصباح انتظرت (جون) بصبر في مكاننا المعتاد و يبدو عليَّ أثر الأرق بعد ليلة من المعاناة الدائمة ، احتسيت القهوة التي قدمها لي النادل بلا سكر ، و الغريب أنني لم أشعر بذلك رغم أنني لا أحبها إلا حلوة المذاق ، تجرعتها دون وعي فكل أفكاري منصبة هناك عند القمر ، الذي توارى ليدع الشمس ساطعة ، و رغم سطوعها ما زلت أشعر بأن الحياة مظلمة . الظلام يرتفع لليل من داخلنا فنصبح شموس الليل هكذا أخبرتني جوليا ، لكن يا حبيبتي في الليل و النهار تتساوى الظلمة في عيني ، أين أنت يا جون ، ساعدني على الهرب .

بابتسامته المعتادة رغم أنني لا أراها صافية في ذلك اليوم، أشعر انه يخبىء شيئا ما خلفها ، أنا اعرفك يا (جون) جيدا ، أرجوك ليس اليوم ، لا تزد ألمي و حيرتي و كن واضحا معي يكفيني ما بداخلي من ضباب .

صمت مطبق و عيون تشي بالكثير و صوت رشفات (جون)للقهوة هو ما يخترق السكون ، و التساؤلات العديدة بداخلي عن الأمر المهم الذي طلبني فيه تزيدني جنونا ، تحدث يا صديقي ارجوك، ربما سمع صرخاتي الصامتة لأنه بدأ يتكلم :

- بالأمس زارني (جورج كاسيدي) كان غاضبا جدا ، لقد أخبرته جوليا عن نيتها للزواج منك ، و ذلك قد أصابه بالجنون

- جنون؟ ألسنا هنا في نيويورك في حضرة السيدة حرية؟ أليس من حق (جوليا) أن تختار؟

نظر (جون) نحوي نظرة تحمل الكثير قبل أن يقول:

- ربما أنت على حق يا صديقي ، كيف لبلد الحريات أن تقيد حرية اختيار الحياة ؟ لكن (كاسيدي) شخص واحد لا ينبغي أن نعمم مواقفه . أنت تعلم صديقه الذي مات تحت أنقاض برج التجارة ، هو لن يوافق ابدا على زواج ابنته من مسلم .
- وافق من قبل على أن يحيا مسلم معه تحت نفس السقف ، يا عزيزي ، (كاسيدي) لا يعرف أصدقاء هو فقط يعشق المال .
- فقط أبلغك رسالته و لا أدري ما ورائها كل ما قاله لي (أخبر صديقك أن يدع جوليا و شأنها فلن يسمح ان يدنس العائلة مسلم ، و أخبره أنني أريد فسخ تعاقدي معه و يرحل تاركا منزلي فلن أدعه غدا يتركه مع ابنتي ، اخبره أن يذهب بعيدا غير مأسوف عليه و إلا لقي ما لا يحمد عقباه) أنا فقط يا أدهم أخبرك الرسالة و قلبي يعتصر فقد تذوقت من قبل مرارة الفراق و الرحيل و التخلي عن قلب منحك السعادة .

الغضب يتصاعد بداخلي ، إن حربي الداخلية بدأت دائرتها تتسع حتى احتوت عالمي الخارجي ، ماذا يمكنني أن أفعل وحيدا في مواجهة كل ذلك ، أنا في حرب فيها وحدي أقاتل الجميع و أولهم نفسي لذا هتفت في (جون) :

- و ما رأيك في ذلك؟
- لا اعلم ، لكنني اعرف (جورج كاسيدي) إن له أصدقاء عديدين من الشرطة الذي يشاركونه المقامرة الليل كله و هم ذوي مركز مرموق في شرطة نيويورك ، أنت تعلم بالطبع أنه لم يكن ليوافق على منحك غرفة في منزله لولا أنه يريد المال للمقامرة ، و أنت تعرف المقامرون و جنونهم يبحثون عن الربح بكل الطرق المشروعة و غير المشروعة و سيعتبر حربك معه هي مجرد مقامرة يجب الربح فيها بشتى الوسائل .

- أمريكا بلد الحريات أصبحت مهد العنصرية، لم أكن يا صديقي يوما خانعا أو خاضعا سأحيا متمردا و أناضل حتى اقتنص سعادتي ، و سعادتي مع (جوليا) لن أفعل مثلك يا صديقي و اراقب سعادتي عن قرب و هي تتطاير من بين يدي دون محاولة مني للامساك بها .

اي كلمات جارحة تلك التي اوجهها كقذائف الهاون إلى قلب صديقي ، لم انتبه اليها إلا حين رأيت عينيه تقاوم بعض الدموع التي تريد أن تتحرر من سجن المقل . حاولت الاعتذار لكن اعتذاري لن يجدي لذا هممت بالمغادرة و أنا أراه يخرج هاتفه النقال و يتصل ب (سامنتا) قائلا بصوت هو اشبه بالنشيج:

- لم أعد احتمل دور الصديق يا حبيبتي ، لم تكوني في أي يوم إلا حبيبتي و لأنني لا استطيع اجبارك على الاحساس بي ، لذا وداعا .

ما زال أدهم يطاردني ليلا و يختطف من العين سباتها فأبيت ليلي متيقظة و عندما يتجلى النهار أجد نفسي شبحا عيونه زائغة تبحث عن الراحة خلف ستور القسوة ، في ذلك اليوم كنت أمني نفسي أن أجد الملاذ من تلك القسوة في زيارتنا الجامعية العلمية لمتحف محمد محمود خليل كي نشهد عبقرية لوحات لم ينل منها الزمن .

قاومت رغبتي في أن أظل في تلك الحالة البائسة التي أدمنتها و أن أبقى وحيدة طريحة الفراش ، نهضت متأخرة بعد حرب طويلة مع نفسي و بعد أن قمت بتغيير ملابسي أسرعت إلى الكلية حتى أستقل الأتوبيس لتبدأ رحلتي ، وجدت مقعدا شاغرا بجوار (عادل) لذا جلست بجواره ، أراقب الطريق من النافذة ، كان الأتوبيس يسير ببطء قليلا ثم يقف ، الاختناق المروري في ساعة الذروة يجعلك تنتظر بينما حياتك منطلقة بدونك، تماما كاختناق حياتي المروري ب(أدهم) ، إلى متى سأراك في كل من حولي ، في الوجوه الكالحة

و العيون البائسة التي أراها من نافذة الاتوبيس ، و (عادل) يقول لي أن الجمال يكمن أسفل النقاب ؟ أين ذلك الجمال يا (عادل)

استوقفتني تلك الخواطر و ذكرتني بسؤالي ل(عادل) في قاعة المحاضرات و الذي لم يجبني عنه لذا وجهت سؤالي ثانية إليه :

- أخبرني يا عادل ، كيف لي أن أرى نبع الجمال المختبىء تحت النقاب ؟

قام عادل بتعديل عويناته كأنه يستجمع أفكاره ثم نظر نحوي قائلا:

- الجمال يكمن في كل شيء ، لكنه نابع من داخلنا ، حتى تستطيعين رؤية الجمال يجب أن تكوني في البدء لديك الاستعداد أن ترينه ، يجب أن تبحثي عنه و تؤمني أن هناك شيئا جميلا يختفي خلف النقاب.
- كنت أظن الجمال سحرا ، يدهشك و يبهجك و تزين أعينك مفاجأته ، هكذا تعلمت منذ صغري، الجمال يكمن في الشيء الجميل و ليس بداخلي.
- نعم للجمال سحر لكن تعويذته هي بقلبك ، بالتأكيد تعرفين فان جوخ فهل تعرفين قصة قطع أذنه؟
- نعم أعرفها ، و أتسائل هل بالفعل هناك عاشق مثله ؟ يقوم بقطع أذنه ليقدمها لحبيبته قربانا كي ترضى عنه ، العشاق هذه الأيام لا يقدمون لحبيباتهم سوى الألم .

هز رأسها نافيا ثم قال :

- فان جوخ لم يقطع أذنه ليقدمها قربانا لحبيبته بل على العكس قام بقطع أذنه لأنه شعر بأنها تقبح صورته في المرآة ، بترها دون تردد حتى يشعر بالجمال في كل ما يراه ، لو لم يوقن أنه جميل لما استطاع الثورة على القبح ليعيد صياغة اللوحات بريشته ، لذلك بعدما قطعها قال (كل صباح حين أنظر إلى المرآة أرى وجه فان جوخ القبيح ، لماذا لا تتجدد؟ لهذا قمت بتشكيل وجهي من جديد لا كما أرادته الطبيعة بل كما أردته أنا ،كانت الأذن في اللوحة ناشزة لا حاجة بي إليها ،أمسكت الريشة و أزلتها ،أقصد موس الحلاقة و أزلتها .. يظهر أن الأمر اختلط

عليّ بين خارج اللوحة و داخلها ،حسنا .. ماذا سأفعل بالكتلة اللحمية ؟ أرسلتها للمرأة التي لم تعرف قيمتي ، و ظننت أنني أحبها ، إليكِ أذني أيتها المرأة الثرثارة تحدثي إليها .) عرف جوخ مصدر الألم بداخله ، مصدر القبح الذي يسيطر عليه و قام بقطعه ، ذلك الألم الذي مصدره أذن تستمع لتراهات الأشخاص القبيحة ، فلنمنحهم ما يريدون و ننتزع منا كل مصدر للحزن

كنت أراقبه و هو يتحدث باهتمام بينما قلبي معلق هناك ب(أدهم) مصدر حزني ، هل أستطيع أن انتزع مني قلبي و أعطيه إياه كي يكف الألم كي استطيع أن أرى الجمال؟ كيف فعلتها يا (جوخ) أي عزيمة تتحلى بها يا هذا.

اكمل عادل حديثه دون أن ينتبه لما يعتريني من انفعال قائلا :

- بالتأكيد قد رأيتِ لوحته (أكلي البطاطا) ألم تري أيدي الفلاحين الخشنة و هي ينعكس عليها ضوء المصباح الخافت كأنه يعكس قسوة الأيام و شقاء القلوب ، هو لم يرسم لنا فلاحين مهندمين ، و لم يزيف الواقع ، فقط نقله كما هو ، و بالرغم من ألمه لا تستطيعين أن تقولي أنكِ لم تستشعري شيئا ما بداخلها استطاع اختراق روحك و أحسسك ببعض الراحة ، إنه الجمال يا عزيزتي ، الأرواح هي فقط ما ترى الجمال .

كنا قد اقتربنا من المتحف و نهر النيل يجري بجوارنا فأشار عادل إليه قائلا :

- انظري إلى ذلك النهر الفيروزي في صفائه ، الرمادي حين يعيد إلينا ما يختزنه منا ، و قولي لي بأي لون ترينه ، فذلك اللون الذي ترينه به هو حقيقة شعورك بالجمال.

صمتت و لم أجب حقا بأي لون أرى النهر ؟ بل هل أنا أراه حقا؟ أم أنني لا أرى إلا أدهم ؟

أسئلة تعتصرني و إحساس يعصف بداخلي بعد حديث (عادل) يبدو أنني كنت نائمة رغم سهاد الليالي الماضية ، اي وهم كنت أحياه .

حين وصلنا انبهرت بواجهة المتحف ، قصر منيف على ضفة النهر ، شعرت براحة غريبة ، ربما هذا هو الجمال الذي حدثني عنه عادل ، يبدو أنني ما زلت استشعر الجمال ، الشرفات العالية للقصر تعكس ضوء الشمس و حرارتها فتلمس صفحة الروح و تخبرها أن خلف تلك الشرفات جمال صافٍ ، ولجنا القصر و دخلنا قاعاته الكثيرة ، الجمال متناثر في كل أنحائه ، لوحات جوجان و رينوار تعكس نورا خفيا ،و تماثيل رودان و كورديه تشعر أنهم يحدثونك عن أشياء لم تكن تعرفها ، كيف استطاع أن يجمع شخص واحد يدعى محمود خليل كل ذلك الجمال ليزين به قصره؟

تنقلت بين القاعات تدهشني حينا المشغولات الصغيرة من الأحجار الكريمة التي تجمعت من كل أنحاء العالم و حينا تدهشني القفازات النادرة و علب الأنرو اليابانية لم يوقظني من دهشتي و خيالي إلا يد (عادل) و هي تمسك بي و تأخذني إلى إحدى القاعات قبل أن يقف بي أمامها ، أمام لوحة (زهرة الخشخاش) و فان جوخ من جديد كأنه اليوم يطاردني في كل شيء .

قام (عادل)بتعديل عويناته تلك العادة التي لا ينفك عن القيام بها و قال لي :

- انظري إلى تلك اللوحة جيدا ، قولي لي هل تصدقين أنها رسمت منذ أكثر من مائة عام ، شاهدي تلك الألوان جيدا ألا تشعرين أنها لم تجف بعد؟ قماش اللوحة لا يتشرب اللون ، و اللون لا يجف ، تماما كالجمال ، و من هنا كانت اسطورة جوخ .

ترقبت بعيون دامعة الروعة الكامنة بين الألوان الحية المتناسقة ، اللوحة كانت تنطق تخبرني أن هناك أمل ، فالأزمان العاتية الواطئة للأحلام لم تستطع أن تزرع جفافها في لوحة منحها راسمها من روحه ، الروح لا تفنى و لا تعدم هكذا علمتني خشخاشتك يا جوخ ، بل تعلمت الكثير منك اليوم .

حين انتهت جولتنا و هممنا بالعودة لمنازلنا عرجت على إحدى المكتبات كنت أود أن أعرف أكثر عن محرري من أسر القسوة ، لذا اشتريت كتابا عن جوخ حين تصفحت صفحاته أسرتني إحدى عباراته و هو يقول :

(الأسود و الأبيض يلونان الحياة باللون الرمادي ،و للون الرمادي احتمالات لا تنتهي .. رمادي أحمر ، رمادي أزرق ، رمادي أخضر .. فكما يحترق التبغ تتسرب الحياة ، و للرماد طعم مر نألفه بالكاد ، ثم ندمنه كالحياة تماما .. كلما تقدم بنا العمر ، غدونا أكثر تعلقا بها ، لأجل هذا أغادرها في أوج اشتعالي و في نهاية الأمر لن يتحدث عني سوى لوحاتي .)

9- الكرة تتخطى السور

الليل ،نعم الليل دوما حالك السواد دوما يعيد ما بجوف الذاكرة ، في تلك الليلة كانت سنووايت تنام بجواري غير مغمضة العينين كانت تراقبني و أنا أتصفح كتابي عن (فان جوخ) بنهم كنت أقرض الحروف قرضا ، أتعلم كيف يمكن أن أصنع جمالي الخاص من وجه تلك الحياة القبيحة فكما يقول جوخ .(كلما أصبحت عجوزا ،شاحبا ، قبيحا ،متقدما أكثر في السن ، سيئا ، مريضا و فقيرا أكثر أرغب بشدة في الثأر من الطبيعة مانحا إياها اللون المضاء الزاهي الأكثر سطوعا)

نظرت من حولي أتفحص الطبيعة ، عيون سنووايت البريئة ، الوسادة التي يخط فيها مجرى نهر لدموعي التي توالت الأيام الماضية ، الضوء الساطع من المصباح لا يمكنني من الرؤيا ، فلأعيد تشكيل البيئة كما أريد ، أغلقت المصباح فعجت الغرفة و الطبيعة من حولي بضوء خافت لكنه ضوء حقيقي غير كاذب. لا يعمي عيني عن رؤية الأمور كما هي ، نظرت الى السقف الذي تتدلى منه أحلامي الموءودة حلم وراء حلم و تتشكل الذكريات و يدار شريط سينما الحياة على خلفية السقف ، طفلة تلهو بدميتها في أسفل الشارع تتلاحق قدميها الصغيرتين في تسارع لأنها تخشى الغرباء و تخجل منهم ، دائرتها السحرية التي تحيط بها ، رتلت حولها تعاويذها كي تطرد كل المتطفلين ، سور وراء سور ، اختبار وراء اختبار حتى تصل إليها ، لكن (أدهم) اجتاز كل ذلك عرف هدفه و انطلق كالرصاصة يخترق الأسوار متجها مباشرة نحو القلب ،لماذا لم تمنعك أسواري ؟ لقد كنت أظنني منيعة داخل حصوني و قلاعي ، فنجحت في اختراقي و إسالة دمائي

أدهم ، اريد استرداد حياتي فهل تعيدها إليَّ؟

حين وصلت ذكرياتي إلى أدهم بدأ السقف في التشكل بصورته ،لكنها أبدا لم تتضح ملامحه حاولت تذكرها جيدا دون جدوى ، هل ضوئه الساطع منعني أن أراه جيدا و أحفظ ملامحه ، أتذكر شاربه ووجنتيه الحمراوتين ، لكنني لا أتذكر كثيرا كنت أراه كعبة الجمال الخالد

، و الجمال النهائي ليس له وجود كملامحه ، دوما نرى من نحب كما نريد و ليس كما هم عليه ، أعتصر ذكرياتي كي أجد بداخلي ما يذكرني بملامحه دون جدوى ، هل كنت لغزا بلا حل؟ أم ان ذاكرتي تتمرد عليك كي تهرب من سطوتك؟ لكن ذاكرتي ليس بها سواك إن تمردت عليك لم يبق منها غير الفراغ ، و الفراغ أهون من البقاء راضخة في قيودك الوهمية .

نهضت من سباتي ، أضأت الأنوار و أخرجت لوحة بيضاء ، و أحضرت ريشتي و ألواني ، الآن سأصنع لوحتي الزاهية سأتمرد على كل القبح من حولي و أرسم الحياة كما أريد ، سأرسمها طاولة بليارد خضراء تقف بجوارها فتاة تمسك بعصاها وتختار الكرة التي تريد لتضربها و تقع في حفرتها المقصودة ، و في الخلف تجلس سنووايت على سريرها الخشبي تقص على الأقزام قصصا مضحكة تعيد البهجة في قلوبهم البائسة ،سأعيد صياغة كل اللوحات و أشكل الحياة كما أريد ، لن أصير كرة بعد الآن .

الليل ينسحب بهدوء ليفسح المجال للفجر الذي يأتي بالنور و بالرغم أنني لم أنم في تلك الليلة إلا أن ابتسامة مشرقة تعلو صفحة وجهي ، اليوم استقبل حياة جديدة بقلب سنووايت لا بقلب عايدة ، قلب يصنع الضحكات و الابتسامات لما حوله ، سأعيد تشكيل العالم و إعادة رسمه من جديد ، سأبحث عن المعذبين و البؤساء و أزرع ابتسامة جديدة على محياهم ، سأنزع النقاب عن وجهك يا مصر كي يسطع الجمال و تبهر أضوائك العيون ، و تغشى الأبصار فالجمال داخل القلوب و الوصول للقلوب قد يحتاج اختراق القلاع لكن ذلك لن يثنيني ، رغم ليل أدهم الطويل أتى الفجر ، الفجر لا يضل الطريق أبدا و الشمس تحفظ عملها جيدا و تؤديه على أكمل وجه ، و شمس (عادل) ستسطع لتقتل كل مصاصي الدماء ، و الوجوه الكالحة البائسة التي كانت تطل من الأتوبيس ستبتسم من جديد، هيا يا سنووايت لدينا عمل نقوم به .

كنت أهم بالنزول و المغادرة بحثا عن ريشة أصبغ بها الحياة بالألوان الزاهية حين استوقفتني والدتي و أصرت ألا أذهب دون الوجبة المقدسة (الإفطار) ، كانت أمي قد أعدت الفول و وضعت الجبن و الزيتون و قطع الطماطم في الأطباق ، رغم بساطة الإفطار

إلا أنني حين رأيته شعرت بجوع لم أعرفه منذ فترة كأنني لم أذق الطعام منذ أيام طويلة ، بدأت الأكل بنهم شديد كمن وجد الماء بعد رحلة طويلة في الصحراء ، شعرت بنظرات أمي نحوي ، و ابتسامتها الطيبة ، أعرف تلك النظرات جيدا ، كم أنتن رائعات أيتها المعلمات تعرفن جيدا من نظرة واحدة إن كان طلابكن يخبرون الإجابة أو لا يعرفونها ، تدركن إن كانوا يغشون أم لا ، نظراتكن الفاحصة تخترق الجلد و اللحم و العظام و تصل لتدرك حقيقة من أمامكن فكيف إن كانت تلك المعلمة والدتي ، و أنا صنيعتها .

نظراتك هذه أقوى من الحروف و أعلم جيدا ما وصلك ، أعلم أنك لا تنتظري مني أن أخبرك عن سنووايت أو عن اللوحة ، فقط تكفيكِ نظرة حتى تطمئني

حاولت أن أكسر تلك النظرات بإجراء حديث مغاير فقلت دون أن أتوقف عن الأكل :

- كيف حال جرحك ؟ هل شفي تماما؟
- قد توقف النزف ثم توقف الألم لكن ما زال أثره باق
- ألم تقولي لي أن بعد الحزم شفاء تام .
- نعم يا حبيبتي ، لكن الجرح الذي لا يترك أثرا يعود أعمق من ذي قبل
- كيف ذلك يا أمي ، أخبريني .
- أتدرين يا عايدة أكبر أخطائي أنني لم أعلمك كثيرا عن الطهي ، حان الوقت أن أعلمك درسا في فن الطهي ،أنتِ تحبين الكوسة حين تحشى بالأرز و اللحم المفروم فهل سألتِ نفسك كيف تحشى ، سأقول لكِ ، يجب أن تفرغي قلب الكوسة جيدا حتى تضعي الأرز و اللحم لكن إن قمتي بتفريغ القلب كله أصبح ما تبقى هشا ضعيفا لا يتحمل ما ستحشينه به لذلك يجب أن تتركي طبقة من القلب تحول بين قشرة الكوسة الهشة و مكونات الحشو ، التفريغ الكامل لقلب الكوسة يفسد كل شيء .

نظرت باندهاش نحو أمي كيف لم أتعلم منها كل تلك الخبرات من قبل ما تعلمته منها في تلك الأيام الأخيرة يفوق كل ما تعلمته سابقا منها ، ابتسمت لها وقلت :

- حسنا ما دمتِ تعترفين بخطئك في تعليمي فن الطهي فأنا الآن ملك يمينك و عليكِ أن تعلميني ذلك الفن جيدا

ضحكت أمي و ضحكت معها ثم قمت قبلت رأسها و غادرت المنزل محاولة أن ألحق بما تبقى من حياتي

جلست على مكتبي أداعب الكرة المائية لتمثال الحرية التي أهدتني إياها (جوليا)، و الحزن يعتريني من كل جانب هل تكون هذه هي الهدية الأخيرة منك يا معشوقتي ، هل تتوقف الطائرات الورقية عن التحليق، و أنتِ يا سيدة الحرية هل كنتِ أكذوبة؟

آه يا (جوليا) لو تعلمين كم هو مؤلم تلك الغصة في قلبي و أنا أشعر أنني قد أفقدك ، الفقد ذلك الإحساس المريع ، كيف يمكن أن تحيا دون من علمك معنى الحياة ، دون من أطلقك من أسر القمقم ، سأقاتل يا جوليا سأقاتل لآخر رمق حتى تكونين لي، آه يا إلهي لا تدعني أفقدها ، ماء عيني بدأ في التساقط و لساني بدأ في التلجلج و أنا أتلو أبيات من الشعر لأرنست بفنز

(التفاحة القديمة تخلع ملابسها و تبكي عصيرا

الزبيب (العنب القديم) سنطعمك به

الحقيقة تعيش بين شفتيك كالطعام الجيد

لا أحد سوف يحملني في فمه مثلك

السم و الخمر ، السم و الخمر حبيبتي

النوم الذي يأتي منك لذيذ و قوي

في الشتاء سأغطيك لحافا

من الذي سيأتي لكِ بدفء أكبر سواي؟

عيونك غروب يحترق و زفير

مورانو و برونز مطروق سوف يشتريني لك

السعادة سراب في عيوني

و دموعي هي الماسات التي سوف تشتريك)

المرارة تتساقط مع الدموع من عيني و أنا ابحث عن خطئي ، فيما أخطات ؟ هل صوبت عصاي نحو كرة لا تخصني أم أنني لم اسدد قط ؟ أو أنني كرة أخرى تضرب بالعصا (عصا الحياة) آه أيها البليارد ، كم أكرهك الآن بعد أن كنت كل حياتي ، هل بالفعل سأفقد (جوليا) أم أن الكرة ستتخبط و تعود كما تفعل دائما ، المباراة لا تنتهي إلا بسقوط الكرة السوداء و لقد صارت كل كراتك أيتها الحياة سوداء ،آه يا جوليا أخبريني ، هل نسيت أمر نقطتي الزيت فوق الملعقة فتساقطتا و ذهبت معهما السعادة؟

السعادة صارت سرابا و دخانا يتلاشى ، لكن كلا سأقاتل ، فما أشعر به نحوك لا يمكن أن أتركه

فشعوري الآن يلخصه بفنز

(في عيني لا أرتدي أي حب غيرك

و في قلبي لا تحرقني أي نار مثلك

هل يمكن أن تقولي لي بجدية

أين يمكن أن أشتري بحب جميل مثلك

تحت علامة (للايجار)

أنا الحب الذي ينتظر كي تشتريه أنت

سأجعل كل حزن

كالكعك المبتل بالخمر جميلا لك)

أبيات بفنز حين رددتها أعادت لي بعض الشعور بالإصرار و الاحساس بأنني قادر على مقاومة الشلال المتوقع من (جورج كاسيدي) سأسبح ضد التيار من أجلك يا جوليا فهل ستؤازريني؟

بهلع شديد مددت يدي تجاه هاتفي و قمت بالاتصال ب (جوليا) طلبت منها مقابلتي الآن للأهمية في الكازينو القريب من تمثال الحرية .

هرولت نحوه و حين وصلت استقبلتني السيدة حرية حاملة مشعلها ناظرة نحو البحر لا أرى منها غير ظهرها كأنها تضن عليّ بوجهها الصبوح ، هل كنتِ خدعة جديدة يا إلهة الحرية؟

جلست على الطاولة انتظر (جوليا) بينما أترقب المشهد من حولي ، المقهى يعج بالزبائن ، هذا الياباني لا تكف أصابعه عن مداعبة أزرار حاسوبه ، و هذه السيدة الإيطالية لا تكف عن الثرثرة ، بينما الشاب اللاتيني تظهر عليه ملامح الفقر و هو يعزف بجيتاره محاولا اكتساب بعض المال من الزبائن ، أما ذلك الزنجي يقف مستندا للحائط ينظر للعابرين و هو يقوم بتدخين سيجارة رديئة ، لقد جمعتهم السيدة حرية من كل بقاع الأرض ، تحت قدميها مآلهم و آمالهم ، و بين كنفيها أسست أمما متحدة و أجناسا مختلفة ، آمنوا أنها ترعى الحريات فأتوا و لكنني وحدي من تأذى ، وحدي من يشعر أنها قتلته حين رفعته عاليا فعرف (جوليا) ثم ألقته من السماء .

أعاصير الأفكار الممتزجة بالألم لا تكف عن اعتصاري و أنا أخشى من جوليا و على جوليا أخشى ألا تقاوم ، و أخاف عليها من نسمات الهواء التي قد تصبح إعصارا آخر في ذلك الجو الذي يكتنفه الضباب ، ضباب الحرية غير واضحة المعالم

رأيتها قادمة من بعيد نحوي ، كانت ترتدي رداءا ورديا قصيرا يعكس أحلامها الوردية التي تحلق عاليا مع طائراتها الورقية ، هذه أول مرة أراها من بعيد ، الرؤية من بعيد لها مذاق آخر تريك المشهد بكل تفاصيله و مؤثراته الخارجية ربما تنتبه لشيء كنت تغفله فتكتشف أنك كنت غارقا في بحر و وجدت شاطئه ، لكن رؤيتي لها من بعيد لم تكن الشاطىء أبدا بل كانت دوامة جديدة من العشق ، أنا غارق في ذلك الهوى و لا أبتغي النجاة ، أعشقك بكل تفاصيلك يا جوليا ، سواء كنتِ قريبة أو بعيدة ، صافحتها و لمست أصابعي رقة الندى لتبث لها أشواق لا تحصى ، جلست أمامي و تلاقت عيوني السوداء بعينيها الخضراوين ، و تعجبت حين تذكرت ما درسته في أن الأسود يمتص كل الألوان لأكتشف أن الأخضر يغرق الأسود في بحار من المروج الندية .

هربت الحروف من لساني و تاهت الأفكار بعقلي بينما قلبي لم يكن في ذلك العالم قط ، لا أدري كيف أبدأ ، استجمعت شجاعتي و بدأت في الحديث :

- لا أعرف كيف يمكنني أن أعيش بدونك .
- و لماذا تعيش بدوني ؟ سنحيا معا طول العمر

صوتها كان سيمفونية رقيقة تحمل معها نغمات الأمل في الحياة ، كلماتها العذبة حملتني إلى عالم الخيال ، إلى السماء كي أعانق الطيور ، لكن عقلي لم يلبث أن يوقظني من أحلامي و يجعلني اسألها :

- و والدك (جورج كاسيدي) أليس ممانعا؟
- لا تعنيني ممانعته يا آدم ، أنا مواطنة أمريكية بلغت السن القانوني ، و ليس عليّ وصي إلا عقلي ، و منذ أحببتك تنحى عقلي عن الوصاية ليمنحها لقلبي ، حبيبي دعك من هراء أبي ، ربما عطفا عليه بقيت معه في نفس المنزل لكن ذلك لا يعني أنني سأجعله يتحكم في مصيري .

لا أصدق ما اسمع ، إنها باقية على العهد حافظة للعشق ستقاوم العالم من أجلي ، لا يعنيني في الحياة سوى ذلك و لا احلم بغير ذلك، أحبك يا جوليا أحبك ، أود أن أعانقك الآن لأستمد من حرارتك وجودي ، أريد أن أعانقك كي أعانق معك الجمال و الروعة .

هتفت فيها :

- ما دمنا عاشقين حتى الثمالة فلنهرب بعيدا ، نحمل معنا قلبينا و نظفر بالسعادة ، سأبحث عن منزل آخر لننتقل إليه
- أجل افعل ذلك ، و لكن احذر ، أبي مقامر ، و المقامرون لا يقتنعون بالخسارة إلا بعد أن ينتهي لديهم كل ما يصلح للمقامرة .
- لا يهم ، ما دمنا معا فلن نخسر أبدا

10- فلسفة البليارد

البحث عن شقة في نيويورك تليق بفينوسي الرائعة و أتحمل عبء تكاليفها ، كالبحث عن خاتم سليمان في أحشاء سمكة تسبح في بحر يزخر بالأسماك ، لم تكن المهمة سهلة أبدا و لكنني لم أتوقف أبدا عن البحث و السؤال حتى وصلت بي أقدامي إلى إحدى الشركات العقارية ، أخبرني موظفها ، أن لديه تلك الشقة و أن صاحبها سيسافر قريبا و يريد أن يؤجرها لمدة عام واحد فقط فهو سيعود قريبا لذا فهو كل ما يهمه ليس المال بقدر أن يكون المستأجرين أشخاصا ودودين يروون أزهاره كل صباح ، وافقت على الفور فمن مثلي يقدر الأزهار ؟ و هو يقع في غرام زنبقة بهية ، هي أجمل أزهار الأرض .

خرجت من باب الشركة و الفرحة تحملني بين راحتيها و السعادة تغمر قلبي الغارق في أحلامه لكن ما إن وضعت قدمي خارج باب الشركة حتى وجدت يدا غليظة توضع على كتفي ،التفت إليه فوجدته شرطي ضخم يضع نظارة سوداء على جسده بينما يلوك فمه بعلكة و تفوح منه رائحة كريهة ،قال لي :

- يحق لك الصمت و عدم الحديث إلا في وجود محاميك.

قال لي ذلك بينما يضع يدي في أساور حديدية و يكبلني بالقيد .

الدهشة و الهلع معا كان هو فقط ما تستطيع قرائته على ملامحي ، ماذا يفعل ذلك المجنون و أي تهمة تلك التي يكبلني من أجلها هل البحث عن شقة في نيويورك أصبح جناية ، اقتادني إلى سيارته التي هي باللونين الأبيض و الأزرق و يعلوها سرينة ، ألقاني بغلظة داخلها و انطلق ، انطلق بسرعة عالية بينما أزيز السرينة يعلو و صراخ الأفكار بداخلي للبحث عن حقيقة الأمر دون جدوى ، لماذا؟

لماذا كلما اقتربت منك يا جوليا حتى أظن أنكِ لي شيء ما يزيحني بعيدا عنك .

وصلنا إلى قسم الشرطة ، أخرجني مرافقي الضخم بغلظة و قادني إلى أحد المكاتب التي يجلس فيه شخص يعلو رأسه بعض الشيب بينما ملامحه تبدو عليه القسوة ، لم يكن يرتدي ملابس عسكرية لكنه كان يرتدي حلة مدنية ،نظرت نحو المكتب فأجد قطعة من الخشب منقوش عليها (ستيف براون) وحدة مكافحة الارهاب بنيويورك ، لم أفهم

علاقتي بمكافحة الارهاب و لماذا انا هنا ؟، لكن ما روعني هو ذلك الشمعدان السباعي الموضوع فوق المكتب ، لكن ما الفارق الذي سيشكله هذا ، إن كانت عدائه المتوقع تجاهي فعداوته لي شيء طبيعي فأغلب أهل نيويورك لا يحبونني لأنني مسلم لذا ما الجديد في ذلك الأمر .

الصمت يتصاعد في تلك الغرفة و مستضيفي لا ينبس ببنت شفة فقط يرمقني بنظرته المتعمقة يحاول استشفاف مشاعري و أنا أمثل أمامه الآن أرضخ في أغلالي بلا حول أو قوة .

ارتسمت على وجهه ابتسامة سادية كريهة كمن استطاع النيل من شخص عنيد ، ملامحه القاسية ممتزجة بتلك الابتسامة تتحول إلى وجه شيطان ثم تحدث بصوته الأجش :

- أخيرا نلنا منك يا أبا مسلم المصري ،أنهكتنا طويلا في البحث عنك

ماذا يقول ذلك الرجل؟ من يكون ذلك الأبا مسلم ، هتفت :

- اسمي أدهم البابلي ، و أعمل في محطة وقود و أدرس الأدب الأمريكي و لا أعرف من يكون ذلك الذي تتحدث عنه

أشار (ستيف) للشرطي الذي أتى معي ليرحل و يتركنا وحدنا ، و بعد رحيله ازدادت ابتسامته شيطانية ثم قال :

- لن يصدقك أحد ، أنت بالنسبة لنا أبو مسلم المصري الإرهابي السري الذي يمد أبا قتادة الموصلي الارهابي المعروف بالمعلومات و المدد
- لكنني لست هو ، أنا أدهم البابلي و أسكن لدى جورج كاسيدي اسأله عني سيخبرك أنني لست على علاقة بأحد فأنا لا أعرف في نيويورك غير زملائي في الدراسة او زملائي في العمل

تعالت ضحكاته أكثر بينما ازددت أنا رعب ، لا بد أن هناك شيء خفي في الأمر و حين يقومون بالتحريات عني ستتضح الحقيقة .

اقترب مني أكثر ثم قال :

- أسأل جورج كاسيدي؟ أنت ساذج جدا يا أبا مسلم ، لقد قمنا بتحريات كافية عنك ، أنت تتقمص شخصية أدهم لتخفي سرك عن العيان ، و لم يفضحك سوى أننا عندما داهمنا وكر ابي قتادة الموصلي بالأمس و لكنه استطاع الهرب وجدنا هاتفه المحمول ، الذي عليه رقمك ، و في الصباح ذهبنا لمنزل (جورج كاسيدي) و بحثنا في غرفتك و وجدنا بعض الكتب الإسلامية التي تدعو للقتال و العنف .

أصابني الهلع و الذهول ، كيف هذا ؟ لا أعرف تلعثمت و لم أعرف كيف أجيب ، فلا توجد بغرفتي غير دواوين الشعر و الروايات .

فأكمل هو قائلا :

- أتعرف يا ابا مسلم ، لقد أحببت شخصيتك الوهمية ، أدهم البابلي ، مصري أتى ليدرس الأدب الأمريكي ، يعمل بمحطة وقود و يهوى البلياردـ يا له من ستار ، أتعرف يا هذا ، أنا أيضا أعشق البلياردو أجيدها تماما ، الواهمون و السذج فقط هم من يظنون أن الذكاء في الشطرنج ، نابليون كان ساذجا يظن أن مواقع القتال كقطع الشطرنج ، فظل يخطط كي يقتل الملك في أقل عدد من الخطوات ، لذا خسر معركة ووترلو ، فنظره يخترق البيادق ليصل للملك ، عبد الناصر رئيسكم ايضا ساذج لأنه أجاد الشطرنج فظل ينظر لتل أبيب تاركا سيناء لذا خسر ، لاعبي الشطرنج لا يجيدون فنون الحياة فحين يموت الملك لا تنتهي اللعبة ، لكن في البلياردـ يجب ألا تسقط الكرة السوداء إلا بعد أن تسقط كل الكرات ، يجب أن تحطم البيادق و كل جيش عدوك قبل أن تفكر في الملك .
- و لماذا تقص عليّ كل ذلك ؟ يا سيدي أنا لست من تظن أنا مواطن مصري عادي اتى للدراسة ظن أن أمريكا هي أرض الأحلام فأتى ليصنع حلمه .

لكن (ستيف) أكمل حديثه دون أن يعير كلماتي انتباها :

- المقامرة ، المقامرة مع البلياردـ تشكل شخصيتي ، فالمقامر لا يهمه إلا المكسب ، و لاعب البلياردـ يعتمد على حدسه في أغلب الأحيان ،لكن لو لم يكن للاعب البلياردـ

قلب مقامر سيتملكه الخوف و التردد و ترتعش أصابعه على العصا و حينها تضيع الكرة ، لو كنت بلا قلب ستجيد البليارد أفضل و إذا أجدت البليارد لن تخسر أي حرب ، (جورج كاسيدي) مقامر لكنه لا يجيد البليارد لذا يخسر دائما ، أتعلم لقد حكى لي عنك ، و أنك أتيت من الشرق لتختطف ابنته و تلحق العار بعائلته ، ربما جذور (كاسيدي) الجنوبية هي السبب في ذلك التفاخر بالجذور و العائلة . و ربما جعلت منه عنصريا ، ربما لو لم تكن مصريا و مسلما و كنت فقط زنجيا كان سيرفض ايضا ، العيب ليس فيك يا أبا مسلم

- أنت تعلم قصتي كاملة فلماذا تناديني بابي مسلم هل ان كنت ارهابيا أختلق قصة حب مع فتاة ليست مسلمة و أعرض مهمتي للخطر ؟

ضحك ستيف ضحكات مجلجلة قبل أن يقول :

- ربما لأنك تجيد التنكر و فن التمويه كي تربكنا أكثر و كي لا نشك بك ابدا ابدا .هيا قل لي أين يختبىء أبو قتادة؟

الذعر يتسرب من بين نظراتي و الخوف يمتلك أنفاسي و لساني كأنه مكبل بأطنان من الحديد و الصمت فقط هو ما أعيده لسائلي

هنا تحولت ملامح ستيف من القسوة للشراسة و هو يعيد تساؤلاته عليّ، و هوى بيمينه على وجهي في صفعة قوية زلزلتني من الخارج و هشمتني من الداخل ، إلا أنها لم تكن أقوى أبدا من صفعة الحياة

صفعة واحدة قد تعيد تشكيل حياتك ، صفعة واحدة قد توقظك من سباتك و قد يبقى لها أثر كأي جرح عابر ، ذلك الأثر هو ما يقودك إلى التغيير ، هذا ما تعلمته من أمي .

حملت معي كل ما تعلمت و كل ما عانيت ، حملت معي آثار الجروح و آلام الصفعات إلى الكلية لأبدأ صفحة جديدة ،ربما هي السنة النهائية بالكلية و ربما قد قاربت على الانتهاء لكن ما زال هناك وقت ، هناك شيء ما يجب أن أقوم به .

جمعت صديقاتي و أصدقائي بعد المحاضرة و ذهبت للمدرج و لا أدري كيف جرؤت على الحديث لهم و الخطبة فيهم و أنا المعروفة بخجلي الدائم .

قلت لهم :

- الجحور دائما تخبىء شيء ما ، قد تخبىء الثعابين و قد تخبىء الأرانب ، أو قد تخبىء الثعابين و هي تلتهم الأرانب بينما نسير نحن على جنبات الطريق غير آبهين بما يختفي تحت الأرض و في الجحور ،هل هي ذاتيتنا التي تنسينا و لا نعلم أن الثعابين ان انتهت بمن هو في الجحور ستخرج للسطح ، الثعابين أيها السادة (المرض و الجهل و الفقر) تجتاحنا و ننسى ، علينا فعل شيء ما ، غدا نتخطى مرحلة التعلم إلى مواجهة الحياة ، حينها سننسى أكثر حتى نجد أنفسنا بين فكي ثعبان ، لذلك فكرت أن ننشىء جمعية خاصة بنا و أن نبدأ بأنفسنا ، فلنتفق معا في مساعدة الضعفاء و الأيتام و العجائز أو في مسح دمعة فقير ، فهل نتفق معا على ذلك؟

نظروا بعضهم إلى بعض في دهشة ، عايدة المنطوية على نفسها تهتم بالآخرين بل أيضا تنشىء جمعية؟

الحياة الجامعية في القرب من منتهاها ، و جمعية كتلك ستخلد ذكراهم لكل من يتبعهم هذا ما فكر فيه البعض لذا وافقوا ، و البعض الآخر رأوا أن عليهم التزاما لمجتمعهم و عليهم المضي فيه لذا و افقوا ، و لكن هناك ما لم يهتم أو يعر كل ذلك أي إعتبار .

بعد أن انتهينا اقتربت من ياسمين ، ابتسمت لها قائلة :

- الخيول المجنحة ليست في الأحلام فقط ، انطلقي يا صديقتي من سجنك الاختياري ، هناك عند نافذة النور ستجديه يقف ينتظرك، اخرجي للحياة يا صديقتي و لا تبقي أسيرة الأحلام

- و أنتِ ، هل ستجدي فارسك عند نافذة النور؟

باغتني السؤال لكنني أجبت دون تفكير :

- فارسي ؟ كلا بل سأجده حين أجدني .

هل سأجدني حقا؟ سؤال ربما أحيا حياتي كلها دون أن أعرف له إجابة ، و هل حقا نحن من نصنع خيولنا المجنحة ؟

لا أعرف لكنني أريد أن أمنح صديقتي بعض الأمل كي لا يأسرها الحزن .

أسوار الخيال ضخمة و سدوده منيعة و حين تستسلم لها تبقى أسير الخيال ، الحرية من الخيال صار حلم ياسمين . أن تصبح ابتسامتها حقيقية تعبر عما تحياه لا ما تأمله ذلك حلم آخر لها ، و هذا ما أريد أن أصنعه لها و ذلك حلمي أن أصبح سنووايت أخرى ترعى كل من حولها .

بينما (عادل) ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة و اقترب مني و قال لي :

- نعم يا عايدة فكرة الجمعية رائعة ، لا تستسلمي للنقاب . انزعيه من وجهك حتى ترين ملامحك و تعرفين ما بداخلك ، و حين يحدث ذلك ستصلين للحقيقة.
- الحقيقة ؟و ما هي الحقيقة؟
- الحقيقة أننا لم نخلق داخل عالم فردي ليس فيه إلا نحن ؟ تحرري يا عايدة من نقابك و انصهري داخل بوتقة العالم ، و حين تنصهري ستجدين نفسك .

حقا هذا ممكن؟ هل حقا أستطيع الهرب من كل شيء لأجد نفسي ، هل حزن العالم سيمنحني ذاتيتي الضائعة عني، أم أصبح بائسة أخرى مثلهم

عادل يحدثني أن الحل في الهرب من فرديتي إلى المجتمع و والدتي تقول لي أن الجرح يجب أن يترك أثرا يذكرني به . و ياسمين تعرفني أن الحلم سجن أكبر من الواقع و من الذكريات .

و أنا وجدت في سنووايت بعض الملاذ ، ربما الانصهار في بوتقة المجتمع تمنحني الحقيقة و ربما لا ، لكنها ستمنحني بعض الشعور بالراحة حين أجد معنى لجدوى حياتي .

- و أنت يا عادل هل وجدت الحقيقة؟
- رأيتها لكنني لم أطبق عليها .

في اليوم التالي قررنا أن نقوم بأول أعمال جمعيتنا ذهبت أنا و ياسمين و عادل ومعنا بعد الأصدقاء إلى ملجأ للأيتام ، أيدينا محملة بالهدايا و الألعاب ،و قلوبنا محملة بما تبقى منها من مشاعر العطف و الحب ، نمر فوق أحزاننا لننغمس في أحزانهم و نمد أيدينا لهم بالألعاب كي تسكن جراحنا ، هكذا كانت سنووايت هاربة خائفة حين زرعت الطمأنينة في قلوب الأقزام شعرت هي بالراحة .

الملجأ كئيب ، و الأطفال يبدو عليهم البؤس استقبلني في حديقته المفقرة ، أرجوحة عبارة عن قضيب من الخشب في نهاية كل طرف من أطرافه يجلس طفل ، و في الوسط محور ارتكاز ، حين يرتفع هذا الطفل يهبط الآخر و بعدها يهبط فيرتفع الأول ، لا يجتمعان في السماء ، و الأرض لا تجمعهما أبدا و تعلو ضحكاتهم الطفولية فتسمعها الطيور فتغرد، هي لعبة الحياة تلك الأرجوحة .

تحدثنا إلى مدير الملجأ الذي كان يشتكي من قلة الموارد ، و الناس التي عزفت عن التبرعات ، و كان يقول أن للناس أعذارها فتكاليف الحياة ربت و ازدادت و الناس لا تستطيع أن تدخر فائضا من احتياجاتها ، و يبقى هؤلاء الأطفال هم الضحايا لكل تلك الأعباء .

بعد أن أنهينا كلامنا مع المدير انطلقنا في أنحاء الملجأ ، نصنع من هدايانا جسر يمر إلى قلوبهم و يوصل إليها الابتسامة ، و هم يلعبون لا يعرفون ذلك المصير الذي يواجهونه ، و تلك الأعباء التي يتحملونها فقط يلعبون و يضحكون ، و لا يهتمون .

كم أتمنى أن أكون مثلكم رغم البؤس ، كيف تضحكون ؟

كانت هناك طفلة تقف في ثوبها الأبيض الممزق تبتسم لي ابتسامة ملاك طاهر رغم وجهها الملطخ بالتراب ، التراب الذي يحيط بها و بنا و لا يترك أثره إلا على الملائكة ،جلست بجوارها على الأرض لم أهتم بملابسي التي قد تتلوث و بطرف ثوبي مسحت عنها أثر الألم

و التراب ، ضحكت لها فضحكت ، أعطيتها بعض السكاكر ، و منحتها سنووايت خاصتي ، لم أعد في حاجة لسنووايت لأنني توحدت معها و صرت سنووايت أخرى ، أنتِ يا صغيرتي في حاجة لها ، لا تدعي التراب يقتل فيكِ ملائكيتك و دعي سنووايت تقودك للحقيقة ، احتضنتها كي أشعرها بالأمان فشعرت أنا منها بذلك الأمان ، فالطفلة بداخلي تحتاج إلى ذلك الحضن أكثر ، قبلت رأسها ووعدتها بأني سآتي إليها دوما كي أزيل أثر الدنس بطرف ثوبي دائما حتى تصبح الأميرة باهرة كما هي الآن

11- وجع الكرات

توالت زياراتنا للجمعيات و المنشآت الخيرية ، انغمست في الحياة العامة و الاستماع إلى مشاكل الناس ، أخيرا دققت النظر في رغيف الخبز و عرفت حجمه الطبيعي ، رأيت كيف تتم معاملة المعاقين و البسطاء، و كيف يتعامل أولو السطوة و السلطة ، عرفت معنى جديدا للكوسة غير الذي تعلمته من أمي و رأيت جروح لا تترك أثرا و لكنها لا تندمل من الأساس ، جروح يملؤها الزمان تلوثا حتى تحدث غرغرينة يجب عندها بتر العضو ، رأيت عالما مختلفا لم أكن أعلم بوجوده و أحلاما تتطاير مع ضوء الصباح البائس الذي يعكس آلام الحياة .

ذهبنا في ذلك اليوم إلى مكان يطلقون عليه منطقة عشوائية ، لم أحب ذلك الاسم أبدا فلا شيء يأتي بعشوائية إنما الحياة متسلسلة متناسقة .

مضينا بين أكوام التراب و القاذورات في أزقة ضيقة تحيط بنا بعض الحيوانات التي كنت أعدها في السابق حيوانات أليفة لكنني اليوم أراها حيوانات بائسة ، الكلاب أصابتها النحافة و يظهر على وجهها آثار جروح عميقة ، و البعض منهم أصابهم العرج أما القطط تنظر إلينا بتعجب منذ متى و تلك الملابس النظيفة و الوجوه الصبوحة تمر من هنا .

بركة ماء قذر في الممر تسبح فيها بعض البطات ذوات الريش الأسود يغطسون مناقيرهم في الماء القذر ليرتووا مثل حال مربيهم.

الوجع ينساب إلى كل خلاياك منذ أول نظرة تنبعث منك في ذلك المكان فحتى الأطفال تطايرت عنهم صفة الملائكية و صاروا شياطين يتقاذفون بعضهم بالحجارة بينما نحن نحاول تفادي الحجارة المتقافزة حولنا ، النسوة متشحات بالسواد إحداهن كانت تخوض في البركة فيتشرب ثوبها الأسود بالماء القذر كي تمسك ببطة سوداء راقبتها بعد أن خرجت من البركة تضع رقبة البطة بين أصابع قدميها و تثبتها جيدا فلا تستطيع البطة الفكاك أو حتى

الصراخ ثم تمرر سكينها برقبة البطة فتذبحها في صمت ، ثم يتحول ذلك الصمت إلى رقصة البطة الذبيحة احتفالا بموتها و نهاية عذابها

العذاب يتجسد هنا ليس عذابا فرديا يخص جنسا واحدا بل هو عذاب لكل الكائنات الحية

هنا ، دخلنا إحدى البيوت لم يكن لذلك البيت سقف فهو أشبه بعشة ، نظرنا إلى صاحبه البائس الذي يتخطى السبعين من عمره و لا يكف عن الابتسام

قلت له :

- أتعجب لك يا عماه كيف تستطيع الابتسام؟
- ابتسم لأنني أعرف أن الغد أفضل
- سبعون عاما لم ينل منك الصبر و اليأس ! !
- و لن ينالا مني ، فما تعلمته في السبعين عاما أن بقاء الحال من المحال .

الإيمان بالغد و الحلم مازالا يسكنان قلوب الفقراء و البؤساء هم نبع الجمال الحقيقي الذي يتدثر بالنقاب أخيرا بدأت أفهم يا عادل بدأت أشعر بالحقيقة .

عدنا أدراجنا إلى المدنية و الحياة الحاضرة من جديد لكن اصابنا بعض الإرهاق فوجدنا مقهى بلدي في المنطقة الفاصلة بين الحضر و العشوائية فقررنا الجلوس لالتقاط انفاسنا و الارتواء ببعض المشروبات المثلجة .

الوجوه الكادحة البائسة و العيون الصفراء تحملق فينا ، بنات على مقهى بلدي معهن بعض الشباب في منطقة شعبية ، دوما في تلك المناطق تلاحق الأعين الغرباء ، لكنني تعودت بل إن كل البنات تقريبا تعودن أن يتعالين عن النظرات الفاحصة التي تريد اختراق ثيابهن لتصل إلى ما ورائها ، هل فكرة الجلوس في ذلك المقهى فكرة غير سليمة، لا يهم سنصنع ما نريد ما دمنا لا نؤذي غيرنا و عليهم أن يتعودوا على ذلك ، جلسنا على المقاعد القذرة و التي أكل عليها الزمن و شرب ، الغريب أننا أحسسنا بالراحة و الهدوء بعد يوم شاق رأينا فيه مصر التي لم نكن نعرفها جيدا

تناهى إلى مسامعي حديث رجلين يجلسان على طاولة قريبة مني كان أحدهم يقول :

- بالأمس بعد أن وضعت القنب تحت لساني و ذهبت لأقوم بعملي في إصلاح بعض أنابيب المياه لإحدى الشقق التي كان صاحبها ميسورا ، شعرت بجوع طاغ ، الرجل كان كريما فقدم لي الشاي مصحوبا بطبق مليء بالكعك الذي يتدثر بالسكر الناعم ، أتدري يا صديقي ؟ إلتهمت كل ما في الطبق ما يربو عن عشر قطع رغم أني لا أحب أو استطعم الحلويات ، و مذاقها يثير اشمئزازي ربما لأنني لم أتعود عليها صرت اشمئز منها ، لكنني لم أشعر بأي طعم فقط هو الجوع ما يدفعك للأكل دون استطعامه فقط هو الجوع ما يحول الطعام من ملذة إلى روتين ، عليك بذلك القنب يا صديقي فهو سيخلصك من الوجع و الألم و كل تلك المشاعر التي تكبل قدميك ، و لا تخف من الموت فهو لن يقتلك .
- أخاف من الموت ؟ أتدري يا صديقي عندما شاركت في الحرب لم أكن أخشى الموت أبدا ، كنت أتقدم الصفوف و أطبق على سلاحي و اطلق رصاصاتي نحو صدور الأعداء ، و الآن أطبق على خرطوم النرجيلة و أتحدث عن القنب و أخشى الموت ، ابنائي تخطوا حاجز الثلاثين و مازلت أتكفل بهم ، نعم يا صديقي أخشى الموت الآن ، أخشى أن يأتي دون أن أجد لحظة سعيدة واحدة و اتساءل لماذا لم أمت هناك على الجبهة لماذا كتب عليّ أن أعود فأجد بلدا أخرى أصابها شيء ما جعل من اللص رجل أعمال ، و من الشريف ذليل . ألهذا كنا نحارب ؟ ألهذا تعرت صدورنا أمام الموت ، أصابني التعب يا صديقي و لم أعد احتمل ، حتى الخشخاش لن يجدي معي .

تطايرت دمعة من عيني لم استطع أن أمنعها و أنا استمع إليه كم كنت أتمنى أن اذهب إليه و اربت على كتفيه لكنني لم أستطع ، حتى التربيت على الكتف أيها الرجل قد حرمت منه

نظرت نحو عادل قلت له :

- هل هذا هو الجمال الذي أخبرتني عنه؟ بركة ماء قذرة تسبح فيها بطات سوداء ، كلاب عرجاء ، نسوة تتشح بالسواد و رجال يستبدلون الحياة بالخشخاش .

- نعم يا عزيزتي دعكِ من الظواهر و انظري لقلوب مازالت رغم كل ذلك تنبض . سنووايت بداخلي تئن و هي ترى الجمال متشح بالسواد يرقص رقصة الموت في قلوب بالكاد تنبض ، الجمال ليس داخل لوحاتك يا جوخ الجمال يتجسد داخل حلم يصرخ ، هؤلاء الناس يعزفون اوبراهم الخاصة الصامتة تتعالى أصواتهم دون أن تصل إلى المسامع .

أقف وسط هدير

شاطىء تعذبه الأمواج

و أحمل في يدي حبات الرمال الذهبية

لكم هي قليلة ! و لكن يا لها إذ تزحف

من خلال أناملي إلى البحر

و أنا أبكي — و أنا أبكي

يا الله ألا أستطيع أن أمسك بها بقبضة أشد ؟

يا الله ألا أستطيع أن أنقذ

حبة واحدة من الموجة القاسية ؟

أم أن كل ما نراه و يتراءى لنا

ما هو إلا حلم داخل حلم

كلمات إدجار آلان بو هذه هي ما كانت تعبر حقا عن حالتي و أنا قابع في زنزانتي التي نقلوني إليها في مبنى لا أعلمه ،أشعر أنني أحيا كابوس و سأستيقظ منه لأجد عيون (جوليا) الخضراء تعيد لي الحياة

ما الذي حدث؟ و لماذا أنا هنا ؟ هل الحلم صار جريمة أعاقب من أجلها أم أن الحرية حلم آخر غير موجود ، يتدثر بالحلة البرتقالية المبهجة احباطي و أنيني و لا يبقى ظاهرا مني إلا بعض البلاهة على وجهي حيث أني ما زلت لا أعلم لماذا انا هنا

مررت بأكثر من تحقيق أمام أشخاص عديدة ، كلما قلت لهم أنني أدهم البابلي لا يصدقونني أو يصدقونني لكنهم يقولون هذا لا يمنع ان تكون أيضا أبا مسلم المصري ، كانت أسئلتهم تتشابه

كيف تعرفت على أبي قتادة ، من باقي أعضاء تنظيمك ، كيف ترسل إليهم المعلومات و غيرها من الاسئلة التي تعكس إيمانهم بأنني حقا ذلك الرجل ، لماذا لا يصدقونني لا أدري إنهم حتى لم يعينوا لي محاميا أو يسمحوا لي أن أجري اتصالا

أشعر أنني معزول عن العالم في تلك البقعة المظلمة ، لا أتحدث سوى مع محققي و مع ذلك لا أقول سوى جملة واحدة أنا لست أبا مسلم المصري

رفيقي في زنزانتي هو الصمت الممزوج بالرعب و الاحباط ، رفيقي في زنزانتي عينا جوليا الجميلة و هي تعطيني بعض الأمل و بعض الحلم .

اين أنتِ يا جوليا ؟ ألم تخبريني أنكِ ستتحدين العالم من أجلي؟ ترى ماذا تفعلين الآن ؟ هل اعتبرتيني رقصة أخرى حين انتهت عدتِ للحياة العادية؟ هل ما كان بيننا مجرد رقصة؟ أم أنكِ تبحثين عني الآن تتنسمين الريح التي تحمل إليكِ الشوق و الحزن ، تقتلني أفكاري يا فينوسي الحسناء و الكوابيس تطارد أحلامي ، و الحرية في أرض الحرية سراب، القيود تزداد و قلبي يئن تحت عبء الضغوط .

أتى سجاني يدفعني إلى حجرة التحقيقات من جديد لتتكرر نفس الأسئلة و تأتي إجابتي بأنني لا أعلم شيئا عما يتحدثون عنه ، لكنهم يستشيطون غضبا مع كل إنكار لي ، و في ذلك اليوم كانوا صارمين للغاية أحدهم صفعني على وجهي صفعة قوية ، ثم كال لي بلكمات على وجهي ، و لكن ذلك لم يجعلني أعرف إجابة لاسئلته فقط لا أعلم من يكون ذلك الأبا مسلم ، غضبه تحول لابتسامة شرسة و قال بلهجة كريهة :

- كم أعشق عنادكم أيها العرب ، فهذا يجعل استجوابكم أكثر امتاعا

لم أشعر براحة من طريقة كلامه و أحسست أن الكارثة قادمة ، أخرج إنشوطة بلاستيكية و لفها حول عنقي حتى أحزم عنقي بها ثم أحكم إغلاقها بقوة

يدي المكبلتان لا تصل لعنقي ، و الانشوطة تمنع وصول الهواء إلى صدري و ابتسامته الظافرة الساخرة تستمتع بألمي و هو يقول :

- حسنا أمامك ثلاث دقائق ثم تموت

أختنق بلا هواء لكنني أختنق أكثر باتهماتهم الكاذبة ، صدري يكاد ينفجر ، ولا استطيع الحديث ، الأنشوطة تضغط على أوردتي الدماء لا تصل لرأسي بل أي دماء تلك التي أحمل، دماء ممزوجة بالوجع ربما الأفضل لرأسي ألا تصلها تلك الدماء

- ألن تتحدث؟ ستموت هكذا أم أنك لا تستطيع التحدث؟ حسنا سأزيل عنك الانشوطة على أن تخبرني بالحقيقة و ان استمر صمتك سأدعها تطوق عنقك مدة أطول

قام بقطع الانشوطة البلاستيكية و عادت الدماء الموجوعة لرأسي و عاد الهواء الملوث لصدري ، لكنني شعرت بالحياة ، الحياة حتى و ان كانت موجعة فحين تعود إليك تسعدك.

انتظر مني اجابة لكنه لم يحصل عليها ، لملم خيبة أمله ووضعها داخل قبضته ووجهها بكل قوته نحو فكي فسالت دمائي على حلتي البرتقالية و لم ينل مني إجابة ترضيه فقال لي :

- هكذا أنتم دائما أيها العرب العناد يملؤكم لكن حتى لعنادكم نهاية

ثم أمر بإعادتي إلى زنزانتي و انتهى يوم آخر من استجوابي و أعلم أنه سيعود في الغد و لن ينتهي ذلك العذاب أبدا .

11- الحفرة

أغسطس 2010

تمر الساعات و الأيام مملة و بطيئة و معذبيّ يستمتعون بصوت صراخي و تعذيبي و لا يستمعون أبدا لما أقول ، كل ما يريدونه هو اعتراف صغير ، يقولون أن الدلائل كلها تشير نحوي ، و إن لم أعترف و أصرح بمعلوماتي عن أبي قتادة الموصلي سألاقي ما لا يحمد عقباه و سأكتشف أن الفترة الماضية ما هي إلا نزهة

استدعاني الضابط المسئول عن استجوابي ، ابتسامته الكريهة تزين وجهه و هو يقول :

- لقد سئمت الإدارة صمتك و عنادك ، و لأننا نعلم أن خير من يقوم بانتزاع الاعترافات من العرب هم أيضا العرب لذا قامت الإدارة بالموافقة على ترحيلك إلى مصر ، أأقول لك مبارك لك العودة لبلادك ، أم أقول فليرحمك الله

و تعالت ضحكاته الساخرة و هو يكمل :

- لا أنكر أنني استمتعت كثيرا و أنا أوجه قبضتي نحو وجهك ، في كل مرة أشعر أنني أثأر لضحايانا الذين قتلوا على أيديكم و لا أنكر أنني سأفتقد ذلك في الفترة القادمة لكن عزائي أن هناك من يقوم بذلك الدور أفضل مني ، إلى اللقاء أيها الارهابي و أنا سأنتظرك هنا بعد أن ينتزع اعترافك و تعود .

في اليوم التالي تم اقتيادي نحو الطائرة الحربية و أنا مكبل في قيودي يكيلون لي باللكمات حتى أجلسوني في الطائرة ، ابتساماتهم المتشفية تقلقني كأنها تقول لي ، كيف كنت تحلم و تظن أننا سنسمح لك أيها السارق أن تأتي و تخطف منا جوهرة براقة مثل (جوليا)، جوليا هناك بأسفل في مكان ما بنيويورك ، ستنساني حتما و ستخوض في حياتها بدوني و أنا في تلك الطائرة راحل إلى بلدي بقيدي، لأكتب قصة النهاية لحلم عشت فيه حتى ظننته واقعا لكن صدمتني الحياة بصخرتها القاسية .و لساني يردد ما بقي مما درس و حفظ من شعر تلك الحضارة التي بهرته منذ الصبا كان يردد ما قاله تيودور رتكي

فوق خلجان الحلم

طار طائر جبار إلى البعيد و أبعد

إلى ظلمة غير مقمرة

عميقا في الدماغ ، إلى زمن سحيق

رددت الشعر و أنا ابتسم فما زلت استطيع أن أتذكر و أنطق بالشعر ، ما زلت حيا رغم ما قاسيت . العقارب تتسابق كي تصل الطائرة سريعا إلى مسقط رأسي حيث تركت هناك حلما آخر لم يكتمل لكنه لم يكن حلمي ، هل كل ما أقاسيه يا عايدة كان بسبب ما اقترفت من جرم تجاهك؟

البحار أسفل الطائرة تذكرني بعيني جوليا ، لماذا كلما أتاني الخاطر محملا بحزن عايدة أهرب منه إلى عيني جوليا ؟ و كيف أفكر في كل ذلك و أنا يتم اقتيادي إلى المجهول إلى مصر ، حيث الرعب الحقيقي ، لقد تربيت هناك حيث كنا نرضع الخوف و نشب على الصمت و الخشية ، إن رايت شرطيا فامض من اتجاه آخر هكذا علموني هناك ، القيود تضيق و تضيق حولك حاولت الهرب من القيد حيث أرض الحرية فصدتني عن إتمام حلمي و أعادتني مكبلا في قيودي .

حطت الطائرة في مدرجها الأخير ، اتنسم هواء مصر من جديد أجده محملا بالخوف و الرعب هنا سأواجه الموت من جديد ، وجدت في استقبالي رجال قساة ما إن رأوا مرافقي الأمريكي حتى ابتسموا له ثم وضعوا عصابة سوداء على عيني ، الآن لا أرى إلا الظلام الذي أنا أحياه ، الآن فقط أرى حقيقة الحياة (ظلمة غير مقمرة) و بقسوة دفعوني داخل السيارة و انطلقوا في شوارع القاهرة ، القاهرة التي ودعتني و أنا قلبي يملؤه الحلم تستقبلني من جديد و لكن اليوم قلبي كسير . ماذا تخبئين لي أيتها القاهرة لم يعد بداخلي شيء آخر يمكن قهره .

حين توقف محرك السيارة عن غناء أوبراه الخاصة و هو يحتك بأسفلت القاهرة القاسي شعرت بايديهم تدفعني حتى تصل بي إلى مكان له رائحة مقيتة ثم أزاحوا عني

العصابة لأجدني جالسا على مقعد قذر يحيط بي الظلام ، لا يخترق الظلام إلا صوته القوي و هو يقول بكراهية :

- أهلا بك أيها الإرهابي في بلدك الذي دنسته بأفكارك ، هل تظننا كفرة؟ حسنا نحن الكفر ذاته لكنك لست بنبي حتى تستحل قتلنا .

هوى كفه على عنقي بقوة زلزلتني و اهتز المقعد بي

- لست نبي ، و لم أسعى لقتلكم بل لست إرهابيا أنا ادهم البابلي ، أدهم البابلي ، أدهم البابلي ، حلم بالحرية و سعى إليها فتفرقت به السبل و أضاع الطريق

صفعة أخرى من خلفي و غضب قاسي يمتزج بالصوت الكريه و هو يقول :

- ستعترف ، أقسم أنك ستتمنى أن تعترف حتى ينتهي ما ستلاقيه منا و حينها قد لا يكون لاعترافك قيمة ، فيجدر بك أن تعترف الآن و ترحم نفسك .
- أقسم أنني لست من تظنون أنا مجرد رجل عادي سعى إلى أمريكا لدراسة آدابهم و التعلم منهم

اقتادوني إلى زنزانتي التي كانت أشبه بكهف مقيت رائحته الكريهة لا تتحملها الأنوف ، و منظره الغير مريح الذي لا تتحمله العيون ، جدران بائسة لا تردد سوى صدى الصرخات الصامتة لكل من قدموا هنا من قبل ، و نافذة بقضبان معلقة في الأعالي لتشعرك أن الأمل بعيد و حتى إن وصلت إليه ستكتشف أنك سجين ،فُتح باب الزنزانة و فوجئت بالماء البارد يغرقني ، اقتادوني إلى غرفة أخرى ليس بها إلا سرير ربطوا يدي و قدماي في قوائم السرير بعد أن عروا جسدي ، و بأقطابهم الكهربائية مرروا فولتاتهم العالية بجسدي ، ينتفض جسدي و يلقي ما بداخله من أسرار ، عيون جوليا بسماتها ، السيدة حرية تجمع العالم تحت قدميها لا ليتحرروا بل ليصبحوا عبيدا آخرين ، دوريان جراي ينظر للوحته و يطيل النظر و هو يرى حقيقته ، العجوز يقتل السمكة و هو يحبها ،نقطتي الزيت تسقط من الملعقة لكل من يبحث عن السعادة ، أسراري تتناثر على الأرض و لا أقوى حتى على الرد على أسئلتهم :

- كيف أصبحت أبا مسلم المصري ؟ ما علاقتك بأبي قتادة الموصلي ؟ ماذا فعلت في نيويورك كل الفترة الماضية ؟ أي أنواع المتفجرات تجيد معرفتها ؟ من هم أعوانك ؟ ما اسمك؟

صمت و صمت و صمت هو ما أجيب به ، حياتي تتناثر مني و لا يبقى إلا شخص أجوف لا يحمل أي إجابة ، للكهرباء سحر عجيب في إفراغك ، أصابني الدوار و لم أتحمل أكثر صمتت عيناي كلساني ، حتى بعد إن سكبوا عليّ الماء و فتحت عيوني لم أستطع أن أنطق ، أعادوني إلى زنزانتي لكنهم لم يتركوني .

عاري الجذع معلق بين الأرض و السماء مكبلة يدي من أعلى كقطعة لحم في محل قصاب تنتظر أن يُعمل ساطوره بها و يقطعها قطعا صغيرة ، أنتظر عذابي الأبدي ، هكذا تستقبلين يا بلدي أولادك ، و جاءوا القصابين أحدهم حاملا بيده عصا من الخيزران و الآخر سوط طويل و ثالث يحمل ابتسامة متشفية ، و بدأ الحدث الأعظم الذي ينتظرونه بفارغ الصبر قطعة اللحم المعلقة تئن تصرخ في صمت تحت وطء السادية المفرطة ، أحلام الصبا تتهيأ أمام عيني ، أسرتي الثرية التي أعطتني مطلق الحرية في مواجهة الحياة ، لم تكبل يدي يوما أين هم؟ ألا يعرفون بحالي ، لماذا لم يعلمونني أن التكبيل و القيد هم أصل الحياة ، ضربات الخيزران لسعات السياط ، و الأوجاع تقتل كل الأحلام و أكثر الآلام التي توجعني أن المسافة التي تبعدني عن فينوسي تزداد فجوة ، و أنا لم أخلق لأقاوم .

الأيام تمر بطيئة ، كل يوم ألقي فيه العذاب ، الأحلام تموت و تتطاير و لا يبقى بداخلي غير فراغ أكبر ، و في إحدى جلسات الكهرباء قال لي أحد المعذبين:

- لماذا لا تعترف و تخلص نفسك عناء هذا العذاب ، فنعيدك إلى أمريكا مع إقرارك بذنوبك و ينته فقرة التعذيب من برنامجك اليومي
- هل لو اعترفت سأعود ؟
- نعم ، فأنت ما زلت في سجونهم و لم يتم تسليمك رسميا لنا فقط أنت هنا كي تعترف

- حسنا سأعترف

كي يكون لدي أمل في أن أراكِ يا فينوس سأعترف ، حتى أكفر عن ذنوبي تجاهك يا عايدة سأعترف ، حتى أمرغ وجهي مثلهم تحت قدميكِ يا سيدة الحرية سأعترف ، حتى أرحم جسدي من كل أوجاعه الظاهرة ، فباطني لن يكف عن الألم ان اعترفت أو لم أعترف فالأحلام تتطاير سأعترف

كتبوا تقريرهم الكامل دون أن يسألوني عن شيء و لم يتبق غير أن أمهر التقرير بتوقيعي و أملوا عليّ اعترافاتي ، كيف أصبحت ابا مسلم و من يكونوا أعواني و أين هم الآن ، عجيب ذلك الأمر إن كانوا يعرفون كل ذلك فلماذا عذبوني ؟ كان من الأجدر أن يقولوا لي لا نريد إلا توقيعك ، و بكل ألم و ضعت لمستي على الورقة بحروف اسمي لأنزع الحرية من داخلي و أصبح أسير قلمي

الشهور تمضي متثاقلة و الأيام طويلة ، ففي كل يوم أكتشف أنني أرى أشياء لم أكن أعلم بوجودها أبدا ، أرى الوجه الحقيقي للحياة ، العيون الباكية ، الوجوه المدنسة ، الأحلام التي تولد ميتة ، كنت دوما أفكر في كل هؤلاء الناس الذين قابلتهم و أنا أقوم بعمل الشاي لي و لوالدتي ، أخيرا أصبحت أدخل المطبخ وحدي و هاأنا أقوم بعمل كوبي الشاي ،وضعت الكوبين على صينية و ذهبت نحو والدتي ، السائل في الأكواب يتراقص بينما أسير ربما هو سعيد لأنني أصبحت أنثى جديدة ، كانت تشاهد التلفاز فجلست تحت قدميها بعد أن وضعت الأكواب أمامها ، أسندت رأسي على فخذيها فنظرت نحوي نظرة حانية بينما أقول لها :

- أماه ،احكِ لي عن والدي .
- أباكِ كان مثلك يا بنيتي ، بل أنني حين أنظر إليكِ كأنني أنظر إليه ، لا يستطيع أن يكبح جماح مشاعره مثلك . ان فرح تراقصت عيناه . و إن غضب قست ملامحه لكن قلبه يظل طفلا ، كل من يعرف شفرة الوصول إلى قلبه يعرف كم هو رائع الحلم طريقه ، و البناء عزيمته ، في كل شارع في القاهرة ترك بناء شارك فيه ، كان

مهندسا عظيما . تعرفين قطعا دار الأوبرا لقد ساهم في إعادة بنائها بعد ان احترقت ، كانت أجمل الأيام هي تلك الأيام كان يشعر أنه يقوم ببناء شيء سيظل خالدا مدى الدهر كل من سيأتون بعده سيقولون ، من قام ببناء تلك التحفة ؟ شعوره بالفخر أنه ضمن ذلك الفريق الذي أعاد لمصر شيئا جميلا جعله يطير سعادة في يوم افتتاح الأوبرا ،رغم أنه لم يستطع حضور الافتتاح لأنك خرجتِ للنور في ذلك اليوم ، لذلك أسميناكِ عايدة فمولدك كان عيدا لمصر حين أعيد لها شيئا جميلا بعد أن تم إحراقه .

- و هل بعد أن يحترق الشيء يمكن أن يعود جميلا؟
- بالتأكيد يا بنيتي خصوصا إن كان ذلك الشيء ثمين كالذهب .
- أكملي يا أماه زيديني حديثا عن أبي

ترقرقت دمعة من عين أمي و هي تتذكر تلك الأيام الرائعة و أكملت :

- ثم أوكل إليه المساعدة في إنشاء قرية أوليمبية استعدادا لدورة الألعاب الأوليمبية التي أقيمت بمصر و التي اشتهرت بحورس ، كانت الأموال يتم ضخها ببذاخة لتلك المشروعات التابعة للدورة ، حورس يحلق في السماء يطير عاليا ينتظر ست ليقتله ، لكن ست باق على عرشه قابع على كرسيه . لذا كانت تلك مسرحية كبرى و لم تكن تلك الدورة إلا ساترا لفساد كبير ، و أموال يتم نهبها من الشعب حاول أبوكِ المقاومة و كشف الستر عنها دون جدوى ، الموجة عاتية ، و بعد انتهاء الدورة كان الحديث عن خسائر بالملايين لمصر بينما غادرت البسمة و جه أبيك حين قتل ست حورس و مزقه إربا ليلحق بأبيه أوزوريس .أرادوا معاقبته أبعدوه عن الانجازات التي يسمونها كبيرة و المباني التي يريدونها جميلة و يعتبرونها واجهة للبلد ليعمل في مشروع إسكان الشباب ، يتعثر في تجاهل المسئولين يقتله تقصيرهم ، الأموال التي يتم ضخها للمشروع ضعيفة ، الدولة تقتل شبابها و لا تهتم بهم هكذا تعلم لتسقط كل تلك المباني في الزلزال . ليست المباني وحدها من سقطت الأحلام أيضا ، تحت الأنقاض ترقد مصر الحقيقية ، فضائح المعمار و جشع شركات المقاولة و

الضحية هم البسطاء لم يستطع الصمت ، حاول التكلم و الصراخ إلى أن جاء ذلك اليوم الذي دهسته فيها إطارات سيارة مسرعة لتصمته للابد

ترقرقت دموع أمي أكثر و توالت بينما قلت لها :

- هل قتلوه ؟
- لا أعلم ، هذه البلد لا تستطيعين أن تعرفي الحقيقة أبدا الا اذا كانت الحقائق ترضيهم . رحل و تركك ابنة خمسة أعوام ، و تركني وحدي في مواجهة الحياة لا يصبرني عليها إلا عينيك العسليتين التي تحمل بداخلها عينيه .

كانت تحاول الهرب من تلك الذكريات الحارقة نظرت تجاه التلفاز بينما أنا لم أتمالك نفسي من الشعور بالغضب لقد قتلوا والدي . الدموع تبلل خدي أحاول الهرب إلى كوب الشاي أحتسيه بينما أنظر للتلفاز لأرى الخبر العاجل الذي جعلني أقوم بإلقاء كوب الشاي بغضب ، لم يكتفوا بقتل والدي ، لكنهم سمحوا بأن يسرق الجمال ، كان الخبر أمام عيني هو سرقة زهرة الخشخاش

بدأت الأرض تدور بي لا يكتفون ببقاء الجمال تحت النقاب لكنهم يسرقونه أو يسمحون بسرقته ، تحت النقاب القذر يصرخ الجمال و يرحل في صمت

الرمادي يحيط بي من كل جانب رمادي أحمر رمادي أزرق رمادي أخضر ، لا أستطيع الحياة بين الرماد ، القبح و الدمامة يلوثان اللوحة و أنا لا أستطيع قطع الأذن ، جوخ أيها المسكين ماذا فعلوا بك ؟ لماذا ترفض البقاء في بلدنا ، فلترسم آكلي بطاطا جديدة حتى البطاطا تسرق، النيل يا عادل ليس له إلا لون واحد نراه به رمادي أما اللون الفيروزي ما هو إلا سراب ، الجفاف يحيط بي . و الصمت يغرق وجهي بالدموع و والدتي تمسح عن وجنتي الدموع

- ما لكِ يا بنية؟
- نزعت النقاب حتى أجده ، فسرقوه فامتلأ القلب حسرة
- القلب يحفظ ما رأى

- لكنه يجف ، يتوقف عن النبض ، في لحظات البؤس يحن يئن يستلهم روح راسم حين يلمس لوحته

حاولت أن أخبئ دموعي و بحثت عن هاتفي و قمت بالاتصال ب(عادل) و حين أجاب قلت له

- هل عرفت يا عادل ، لقد سرقوا الجمال من أرضنا
- نعم عرفت و لن أصمت
- ماذا ستفعل ؟
- الآن أنا في طريقي إلى وزارة الثقافة ، سأواجه الوزير ، سأقول له حتى الخشخاش تحرمونا منه ، سأقول له من لا يستطيع حماية الجمال فليرحل
- سيسجنونك
- لا يهم ، و ما الفارق بين أن تكون طليقا بلا هدف ، بلا جمال يقودك لروحك ، و بين أن تكون سجينا ، يكفي أنني سأقول له ارحل يكفي أنني سأحيا لحظة

أغلق الهاتف بينما ما زلت أبكي ، لماذا دائما الدنيا تطرد الجمال و لا تعطينا غير وجهها الدميم ، حين رأيت الجمال في وجه (أدهم) أدار لي ظهره و رحل ، و حين رأيت الجمال في (فان جوخ) سرقوه ، و أبي حين كان يعشق الجمال و يصنعه قتلوه ، و (عادل) الذي يبحث دائما عن الجمال سيسجنوه بالتأكيد سيحبسونك يا عادل

الجمال في بلدي إما أن يرحل أو يسرق أو يقتل أو يسجن ، الجمال في بلدي لا يحيا طليقا أبدا ،بلدي تكره الجمال لذا تضع نقابا قذرا على عينيها يمنعها دائما عن رؤية الحقيقة .

- هل تسخر منا؟ كيف تعترف بإثم لم تقترفه

قالها لي الضابط و هو يوجه نحوي صفعة قوية شديدة اقتلعتني و أطاحت بي و هو يكمل:

- حين أرسلنا اعترافك للحكومة الأمريكية ردوا علينا بأنهم قد وجدوا ابا مسلم المصري و أمسكوا بباقي التنظيم و أنك لست هو ، فكيف تقول أنك هو ، هل تريد إحراجنا ؟

لا أعرف إن كنت أريد الضحك أم البكاء أم الصراخ أم التأوه و الأنين ، لا ادري ماذا يجب أن أفعل الآن أنا بريء ، هذا الرجل يقول لي ذلك رغم أنني اعترفت بأنني لست كذلك هي سخرية الأقدار التي تسوقنا لتلقي بنا في طرق لم تطأها أقدام من قبل ، لماذا هو غاضب؟ هل ساقته الأقدار بعيدا عن فينوسه؟ هل حرمته من حلمه الدائم بالانطلاق ؟ هل وضعته تحت رحمة رجال بلا قلوب يستمتعون بتمزيق روحه قطعا صغيرة ؟ بالتأكيد هو ليس كذلك ، أعلم أنه سعيد بالتأكيد يجب أن يكون سعيد من استطاع أن يقنع بريء أنه مذنب من نجح فيما فشلت فيه أمريكا بكامل سطوتها . عيناه لا تغادر وجهي و هو ينظر لي بترقب قبل أن يقول لي :

- لا تظن أن بريء هذه تعني أنك طليق ، بالتأكيد لن نسمح لك بالخروج فما لاقيته هنا يجب أن يكون سرا لا يغادر تلك الجدران

أصابني الذعر فهتفت :

- أعدك بأن ...

قاطعني في صرامة :

–غدا سننقلك إلى السجن ، أهنئك على انتهاء فترة الاستجواب

– و لماذا أبقى لماذا لا تعيدونني إلى أمريكا

– لأنهم لا يريدونك هناك فأنت عرفت و شاهدت كثيرا و رأيت كيف يستجوبون المتهمين ، و ربما فضحت سر حامية الحريات

– سأصمت لن أتكلم

– لن تجدي توسلاتك ، قريبا سيقودونك إلى السجن ، وداعا

مضيت تلك الليالي الأخيرة في زنزانتي أراقب تشقق جدرانها على الضوء الخافت ، عيناي صارتا تألفان الظلام و كل ظلام يقودني الى ظلام أكبر و جرمي أنني عشقت ، عيناك يا

جوليا تلك الفرحة التي تقود للأحزان ، و عطرك الفواح هو الطريق لنتانة القبور و السجون و أنا كنت معلق هنا في قيودي أعاني قسوة السياط ، و ذل العري ، و دموية الأحذية ، اعترفت بذنب لم أقم به فقط حتى أعود إليكِ ،حتى الاعتراف لا يقود إليكِ صرخات القلوب أعلى و أجل من صرخات الألسنة في الزنزانات المجاورة ، الآن لا أسمع إلا قلبي و العذاب نار تجتاح جسدي ، آلامي الآن تفوق آلام السياط ، و ارتعادي يفوق ارتعادي من الكهرباء ، هناك كان أمل في ان يأتي يوم أخرج فيه من ذلك العذاب أما الآن فعليّ التعايش مع تلك القيود الذي سأظل أرضخ فيها لأبد الأبدين ، حياتي الجديدة ليس فيها لون أخضر كعينيكِ ستكون كلها سوداء قاتمة، الحلم قُتل الحرية ماتت ، و السعادة توارت مع شمس الغروب بينما أنا بقايا حطام لكائن بشري أنتظرهم كي يقتادوني حيث شاءوا مستسلم خانع خاضع لا يقاوم فمن الواضح من كلام محققي أن اعتقالي سيكون أزليا و قد كان في الصباح قاموا بوضع عصابتهم السوداء على عيوني و لا أدري ما فائدتها أنا لا أرى الا ظلام و سواد و أشباح وجوه من حياة ماضية ،والدتي التي تزوجت بعد وفاة أبي ،عايدة الباكية التي أحبتني بصدق ، جون ذو القلب الحنون الذي يعشق حتى الثمالة ،سامنتا و ابتسامتها التي تحملك إلى عالم من الهيام ، جورج كاسيدي الأشيب الصارم الذي سعى لقتل روحين جمعهما العشق ، ستيف براون أفضل لاعب بليارد رأيته ، كل تلك الأشباح تتلاشى داخل عينيكِ الخضراء يا عزيزتي ، عيناكِ فقط هي من تضيء ظلمة حياتي بضوء أخضر يبعث في الأمل .

12- ضربة غير مباشرة

نوفمبر 2010

محرك السيارة يدور بجلبة عالية كأنه الآخر يصرخ حزنا على من يحمله الهواء في الطريق لا يختلف عن سابقه داخل زنزانتي فمصر هي زنزانة كبرى و أهلها يعلمون ذلك جيدا . وصلنا لأرض السجن ليتم استقبالنا الاستقبال الصاخب ذلك الاستقبال الذي يوحي لك بما سترى هنا في الأيام القادمة العصابة على عيني تمنعني من الرؤية فقط أيادي ضخمة تصفعني كلما خطوت خطوة ، الصفعات القاسية تنهال عليّ دون سبب و لا أفهم أي جرم اقترفت أنا البريء المعذب ، أنا من فررت للحرية و آمنت بسيدتها و جلست تحت قدميها كي أنهل من رحابها ، أهذا هو الجزاء؟

أخيرا بعد احتفال صاخب من وابل الصفعات تم إزالة العصابة السوداء من عيني و هم يقتادونني إلى عنبر السجناء ليسوا سجناء لكنهم معتقلين بلا جريمة ، الرائحة كما هي و قذارة الزنزانة كسابقتها أما الظلام فهو أقل فهناك من يشاركني العذاب .

يوم جديد مفعم بالوجع و الألم الذي سيظل أبديا داخل ذلك المعتقل و ما دام أبديا فلن تمر تلك الأيام إلا إن انسجمت مع رفاقي ، لم أكن البادىء بالتعرف أو الاندماج لكن كان ذلك الشيخ الأشيب الذي يبدو أنه على مشارف الستين بتجاعيد وجهه لكن جبهته تشع بنور خفي تشعر به و لا تراه اقترب مني ذلك الشيخ و تحدث إلي

- لا عليك يا بني أعلم شعورك في أول أيامك هنا ، بشرتك البيضاء المشربة بالحمرة رغم الوهن الذي تشعه ينبىء أنك كنت من المنَعمين لا تحزن يا بني فأغلب من هو معتقل هنا معتقل بلا جريمة ، ستمر الأيام سريعا ليعود الحق لأصحابه و كل ما عليك أن تظل في كامل وعيك حين يأتي ذلك اليوم كي تتذوق النصر
- هل حقا سيأتي يوم لا أشم فيه رائحة القيود؟
- نعم سيأتي إلا القيود التي تفرضها على نفسك

ترددت جملة جوليا في ذهني حين قالت (دعنا نتمرد على الحرية حتى لا تقيدنا) و تذكرت ذلك اليوم الذي طلبت فيه مني الزواج كم كنت سعيدا في الماضي

قاطعني صوت الشيخ عن أفكاري و هو يقول :

- اسمي (علي) و لأسمي حكاية ، يوم مولدي سمع والدي هاتفا يناديه في المنام أن سميه (علي) لأنه سيكون عليا إن شاء الله ، مضت من حياتي ستون عاما و لا أدري أين تلك العلياء التي سأكون عليها .قابع في أسفل الأسفلين في معتقل بلا شرفات جدرانه السميكة الخرسانية جاثمة على صدري و سأكون عليا بالتأكيد هي أضغاث أحلام .

ابتسم الحاج (علي)و هو يكمل بينما عيناه ازدادت بريقا :

- لكنني أؤمن أنني عليا و اؤمن أنني سأظل عليا رغم كل شيء لن ينالوا من عليائي

فهمت مغزى الحاج الطيب هو يريد أن يهدىء من روعي في أول يوم لي هنا و لا يريد أن ينال المعتقل مني لذا فهو يمنحني بعض الأمل كم أنت طيب أيها الرجل أجبته :

- اسمي أدهم لكن في الماضي كنت أحب أن أنادى بآدم ، فلقد كنت أظن أن آدم هبط من الجنة بالجنة إلى الأرض كم كنت غرا ساذجا
- بل هو بالفعل لم يهبط بجنة واحدة إلى الأرض بل هبط بجنات عديدة إلى الأرض كل صفة تعمر فؤادك هي جنة حين تستسلم لها ، حين تتذوق الإيمان و يعم قلبك تستشعر روائحها الطيبة ، حين يعم الرضا قلبك و البسمة محياك و القناعة في عقلك فأنت بالتأكيد تستمع لازاهيج الجنة ، هبط آدم بالجنة للأرض لكن هبط بها بداخله ، إن تعاليت عن صفاتك المادية و تحولت لروح تجوب الأنحاء بلا جسد ستفهم ما أقصد .

تعجبت مما يقول ذلك الحاج إنه يلاقي صدى بداخلي رغم أنني كنت أظن الجنة في قربي من جوليا في مشاهدة طائراتها الورقية و هي تعانق السحاب أما هو فيخبرني أن الجنة هي أنا إن سموت ،أتاني صوت شاب بجوارنا يرتدي نظارة طبية يقوم بتعديل موضعها على انفه و هو يقول :

- نعم يا حاج علي هو كذلك بل أضيف على ما قلت أن الجنة هي جمال ينبعث من كل ما حولك و يخترق روحك فتستشعره و تذوب فيه و يمنحها رقيا و لحظة

مختلفة عن العالم ، اسمي (عادل) تخرجت حديثا من كلية الفنون الجميلة و جريمتي أني وقفت أمام وزارة الثقافة أطالب وزيرها بالرحيل فهو لم يحمي زهرة الخشخاش و تركها تضيع و تتلاشى ، تحملت كثيرا في تلك البلد أنتظر لحظة تتحقق فيها الأحلام و ما يصبرني على ذلك هو أن الجمال بداخلها لكن حين يسرق الجمال لا يبق شيء . فما الذي أتى بك إلى هنا يا ادهم؟

- جريمتي أني عشقت ، أنني كنت أحلم بالحرية بلا قيد ظننت أن الرياح خلقت فقط لتحمل الطائرات الورقية و تتركها تسابق الطيور .

نظر الحاج علي نحوي بتأني قائلا :

- لا حرية بلا قيد يا بني ، بل أنك قد تبذل حريتك من أجل القيد، أتدري ما تهمتي؟ أنت تعلم أننا على مشارف انتخابات برلمانية لذا ابن أختي (أسامة) غضب على مرشحي الانتخابات البرلمانية من أعضاء الحزب الحاكم فقام بعمل منشورات يقوم بفضح جرائمهم و صارت المنشورات كالنار في الهشيم بين أيادي كل أبناء الدائرة ، فضح بيعهم للوظائف و تأشيرات الحج بالدلائل ، فضح أعمالهم القذرة و جرائمهم الخفية بتجارات يعاقب عليها القانون و قبل كل ذلك فضح طرق تزويرهم ليربحوا الانتخابات هذا بخلاف بعض المنشورات الأخرى عن انتقاده للأمن و كيف يتعامل مع ابناء الشعب ، عرف أسامة أنهم سيطاردونه فاختفى عن الأنظار ، بحثوا عنه و لم يجدوه لذلك قرروا ان يتعاملوا معه بقذارة و يضغطوا عليه لذا اعتقلوني ، حتى ان علم بوجودي في المعتقل سيقوم بتسليم نفسه ، إلا أنني قبل أن اذهب معهم طلبت منهم أن أختلي بابنتي (أمنية) و قلت لها ان عاد أسامة فليذهب بعيدا عن الأنظار و لا تدعيه يسلم نفسه من أجلي أنا شيخ كبير سأرحل عن الحياة قريبا او سيخرجونني فأنا لا أفيدهم بينما ان نالوا منه لن يدعوه أبدا فهو مازال شابا فتيا ، هذا هو القيد يا أدهم الذي من أجله تحرم نفسك من الحرية ، ابنائك زوجتك عائلتك هذه القيود التي لا ترحم ان أصابها أذى ، قد كنت حددت زفاف أمنية مع خطيبها قبل اعتقالي بأيام في إجازة نصف السنة و أكثر ما

يقلقني الآن هو انجاز ذلك الأمر و هو وصيتي الثانية لها حين اختليت بها أن تنجز زفافها في ميعاده و ان لم أكن موجودا ، رغم كل ذلك الألم يا بني ما زلت شاكرا الله مازلت راضيا اشعر بالطمأنينة فلا تظن أن كل ما أدفعه من ثمن بلا مقابل

أبهرني حديثه لم أكن أظن أن هناك من يزال يفكر و يشعر بهذه الأشياء ، لقد سافرت أميالا و أميال أبحث عن الحرية الحقيقية و أخيرا عرفت أين تكون وجدتها داخل السجن ، نعم الحرية الحقيقية هي أن تتحرر عن الجسد و تتعالى عن الألم قررت منذ تلك اللحظة أن ألزم صحبة الحاج علي و أن أتعلم منه المزيد و المزيد

أعشق الشمس حين تراوغ الغيوم لتطل بوجه ملائكي براق ينثر الدفء على الجميع لذا أحب الشتاء لقد بدأ الشتاء مبكرا هذا العام فما زلنا في نوفمبر إلا أن درجة الحرارة منخفضة جدا ، انتظرت الشمس هذا الصباح لكن الضباب يزداد كثافة ، ارتديت ملابسي و هممت بالذهاب لعملي في قصر الثقافة حيث تم توزيعي ضمن العشر الأوائل للخريجين ، في البداية كنت أظن أن عملي له علاقة بالفن لكن اكتشفت أنني بلا عمل تقريبا ، ما يُسرِّي عني أن صديقتي (ياسمين)معي ، أعشق شمس الشتاء لكن الشمس هذا العام يحجبها صور بعض الأشخاص و اللافتات التي تملأ الشوارع ، شعارات كاذبة و أحلام وردية الظاهر و جوفاء الباطن كعادة كل الانتخابات الكل يؤمن أنه الأحق ، الكل يؤمن أنه الرابح الوحيد بينما من يختار لا يجد فيهم من يصلح ، و من يصلح يؤمن أنه الخاسر و إن شعر أنه الرابح سيصطدم بقوة أكبر تقتل طموحاته ، لم أكن يوما أهتم بالسياسة لكنني صرت أهتم بآمال الطفلة في الملجأ و الرجل في المقهى و البطة السوداء بين أقدام سيدة تتشح بالسواد تخوض في الوحل ، لقد حلمت أن أصير سنووايت تضم أقزامها إلى صدرها و تحنو عليهم ،لكن هناك حائل يمنع الوصول إليهم و حائط يعوقني دائما و جرح غائر في صدري لا أستطيع نسيانه جرح بدأ نزفه يوم سرقة لوحة فان جوخ . لذا بدأت أهتم بالسياسة

في ذلك اليوم وصلت متأخرة للعمل وجدت (ياسمين) جالسة تقوم بحل الكلمات المتقاطعة بعد تبادلنا التحايا قلت لها :

- ما الجديد في الأخبار اليوم ؟
- لا شيء جديد كعادة كل يوم و لا يتحدثون إلا عن محاكمة قتلة خالد سعيد و شهادة كبير الأطباء الشرعيين الذي ما زال مصرا أنه ابتلع لفافة من البانجو مصمصت شفاهي و لم أتعجب فهذا ما يحدث دائما ، المظلوم يُقهر أو يُقتل و القاتل إما مجنونا أو لا أحد لذا أجبت :
- رحمه الله هو الآن بين يدي لطيف خبير، رحل و تركنا ملطخين بدمائه كالعديد و العديد مثله رحلوا إلى ذمة الله بينما دماؤهم معلقة بأعناقنا تنتظر منا القصاص لكننا بلا حول أو قوة
- اصمتي يا عايدة نحن في مقر العمل أخشى عليكِ إن تحدثتي بذلك كثيرا ، لا تنسي (عادل) و كيف اختفى دون أن نعلم أين ؟
- أنسى (عادل)؟ كيف ينسى التلميذ معلمه؟ منذ عدة أيام ذهبت لعميد الكلية استفسر منه عن استبعاد (عادل) من لائحة المعيدين رغم أنه الأول في الترتيب قال لي : (كيف أوافق على تعيين معيد و هو مجنون ، لا يوجد عاقل على الأرض يطلب من وزير الرحيل) اختفى عادل يوم اختفى الجمال
- نعم يا عايودة لم أرى عينين حالمتين في مصر مثل عينيه التي تشع بريق الأمل من تحت عويناته
- دعينا من ذلك و لنكمل كلماتك المتقاطعة حتى نقتل الوقت
- حسنا قولي لي اذأ ملك بريطاني ترك عرشه من أجل امرأة
- لا بد أنه حالم آخر وجِد في العالم الخطأ ، الرجال يا عزيزتي تكبر بداخلهم شهوتهم للتملك و مستحيل أن يتنازلوا عنها من أجل أحد ، حبهم للمرأة هو حبهم للتملك
- هل تكفرين بالحب؟

- بل إن الحب من كفر بي ، عشته نبضته أحسسته حتى ضاق صدري و انفجر به فتحملت عنائه وحدي

- عايدة ، لا تقولي ذلك فأنا أحيا على ذلك الأمل الذي أجده فيه و يحملني بعيدا عن ذلك العالم كونك قاسيتي منه لا يعني أنه السبب بالتأكيد كان سوء اختيار

قلت لنفسي يا لي من حمقاء قاسية كيف أقتل الحلم الذي ينمو داخل قلبها حتى لو كان حلما لا وجود له حاولت أن ألطف الحديث :

- ربما أني لست محقة ، كوني كما أنتِ حالمة فايمانك بالأحلام هو فقط ما يحققها و صمتت قليلا و أفكاري تغادرني لبعيد حيث أمريكا و حيث يوجد (أدهم) ما زال للجرح أثر أرجو ألا يعود أعمق .

توطدت علاقتي ب(عادل) و الحاج علي و صرنا شلة لا نفترق نتبادل الحديث دائما عن تلك القيم التي نفتقدها كالإيمان و الحرية و السعادة ، نحلم بغد و إن كان بعيدا ، صار ثلاثتنا كيانا واحدا ، في تلك الأيام زاد رواد السجن من البؤساء و حين سألنا عرفنا أن الانتخابات هي السبب ، النتائج التي لا تعبر عن الحقائق ، الحزب الحاكم يكتسح و لا عزاء للآخرين .

في ذلك اليوم جلسنا في وقت الفسحة في فناء السجن منعزلين في ركن صغير ، كان عادل كعادته حالما فبدأ حديثه قائلا :

- العام الماضي رسمت لوحة عن حلم و أمل قادمين عن شمس ستسطع على الأرض لتحيل القتلة إلى تراب و ما زلت مؤمنا بأن الليل سينقشع و تسطع الشمس من جديد

أكثر ما كان يدهشني في رفيقاي هو حلمهما و أملهما الدائمين رغم كل ما نلاقيه بين تلك الجدران من ذل و ألم قلت ل(عادل) :

- ذكرتني بقول الشاعر الياباني (اذاً يجب عليك أن تسخر ، إن الفجر يدنو ، لقد تعلمت كثير و عانيت من هذه الشجاعة الصامتة ، راهنت ، تأملت في هذا الحجز

، ستنال حريتك و تسير جنبا إلى جنب مع الذين يحتقرون العواصف الغبارية)

أتمنى يا عادل أن يأتي ذلك اليوم ، رغم أنني لا أرى بوادر ظهوره

تدخل الحاج علي قائلا :

- الساعة التي تسبق الفجر هي الأكثر حلكة .

قاطعنا عن حديثنا الحالم اقتراب الشاويش (سلامة) من جلستنا أخرج سيجارة و أطرق السمع بقربنا ثم وجه حديثه نحو الحاج علي قائلا :

- لا أعرف أيها الحاج الطيب ، شيء ما في وجهك يحثني على الجلوس بجوارك و أن استمع لك ، لقد لاحظت وجودكم معا دائما و استمعت لبعض أحاديثكم التي لاقت صدى بنفسي لكن لا أعلم حقا ما هو ، كل ما تعلمته هنا أن احتقر كل من يأتي لتظله الجدران فهو غير جدير بالحرية ، لكنك مختلف

ابتسم الحاج (علي) ثم قال :

- أتمنى يا بني أن يجعلني الله عند حسن ظنك و لأنك انسان و لديك قلب فهو يرى و يشعر بالظلم و يتمنى الحرية
- و لكنني حرا في المساء أمضي إلى بيتي ، ارقد على سريري بين أحضان زوجتي و توقظني طفلتي مبتسمة قائلة لا تنسى يا أبي أن تحضر لي الحلوى .
- هذه ليست الحرية ، أنت لست حرا انظر إلى سيجارتك ، أنت تدخن كي تضع صدرك تحت ضغط الدخان فيضيق حيزه من التمدد فيظن حين يتنسم قليل من الهواء أنه بلغ مدى الحرية المطلق لكنه في الحقيقة سجين ، أنت تصنع سجنك بيدك يا بني
- هذه أول مرة استمع إلى من يحترم عقلي فخبرني ما هي الحرية ؟
- الحرية هو أن يرق قلبك ، فلو رق قلبك لما أصبحت اسير سلاحك
- لو رق قلبي لما استطعت أن أقوم بعملي
- لو رق قلبك كان سيحبك الجميع و يخافون أن يؤذونك أو يتسببوا في توجيه اللوم لك

- تتحدث كأننا في مدينة خيالية يعمها هواء آخر غير الهواء الذي نتنسمه
- نحن من نصنع الهواء بقلوبنا ، و أنفاسنا التي تخرج من صدورنا هي من تعمه بالنور
- أتدري أيها الحاج ، أكثر ما يؤلمني هي نظرات الحقد و الكراهية في عيون كل الرواد هنا
- صدقني يا بني سيزول كل ذلك إن لم تنظر لهم نظرة احتقار

كنت أنا و (عادل)نستمع لذلك الحديث دون تدخل منا كنا نريد أن ننهل فقط و نتعلم فقط لذا تابعنا بصمت و بعد ذلك الحديث لازمنا الشاويش (سلامة) و صرنا اربعة لا نفترق أبدا نتبادل الأحلام و الأفكار و نهيم في فلسفات ، إن السجن يعطيك كل الوقت أن تصفو مع روحك و تنطلق بعيدا حتى تعرف حقيقة العالم

13- تخبطات

يناير 2011

أغلقت أضواء الغرفة و أعددت نفسي للنوم ، غدا يوم جديد لا يختلف عن اليوم كثيرا ،رغم أنه بداية عام جديد ، الروتين يقتل روح الفنان ، لماذا بعد أن يقوموا بتعليمنا الفن يلقونا بين براثن الروتين في وظائف تسجننا بداخلها ، الوجوه البائسة نفسها ،قصر الثقافة الذي لا يرتاده أحد ، حتى كلمات ياسمين المتقاطعة صارت متشابهة بعد فترة .

حسنا إن كنت لا أستطيع أن أقتل الروتين فعليّ أن ابحث عن شيء جميل بداخله ، لا أعلم لماذا كنت أعشق ليلة رأس السنة كنت أنتظرها في صغري و أحلم بتلك الليلة التي يغلق فيها الأضواء في أول لحظات العام الجديد و حين تعود تكون شفتاي فريسة تلتهمها شفتا فارسي الذي تحتضنني ذراعيه و تأسرني عينيه رغم الظلام أشعر بذلك الأسر ، لكنني اكتشفت الحقيقة ، الحب دخان يتطاير سريعا و قيوده من ثلج سرعان ما تذوب .

اقتلعني من أفكاري صوت أجنحة تحلق في الغرفة ، لا بد أنه عصفور ضل طريقه ، عصفور؟ في ذلك الوقت من الليل؟ إن العصافير لا تستيقظ في ذلك الوقت ، أعدت الأضواء للغرفة كي أرى الزائر القادم ، ما إن عادت الأضواء حتى أصابني الهلع ، إنه خفاش أخذ من غرفتي ملهى له يقوم بقطعها ذهابا و إيابا دون أن يوقفه شيء ، لا أدري لماذا للخفافيش ذلك الصدى المرعب بداخلي ، لكنني أخافها ، ربما لأنها تذكرني بأفلام مصاصي الدماء و ربما لأنني أعرف أنها عمياء مما يعني أن ردود أفعالها غير معلومة ، لأنها عمياء فإنها تتخبط دائما في الجدران و لا تفرق بين الجدران و البشر .

خرجت من الغرفة و تركتها للخفاش و قمت بتشغيل التلفاز ، كي يهدأ روعي ثم أعود إلى غرفتي فيكون قد رحل أو يكون بداخلي القوة القادرة على مواجهته و طرده .

لكن ما شاهدته في التلفاز كان أكثر رعبا ، الجثث ملقاة على جنبات الطريق ، الصراخ و العويل لا ينقطع ، استمع للأخبار بهلع بقلب منفرط بالحزن إنها كنيسة القديسيين بالاسكندرية ، الرعب على وجوه المارة و الدماء على أرضية الشوارع ، و العيد صار مأتما و

البسمة صارت دموعا حمراء ، العام الجديد يطل بوجهه دون قناع ، العام الجديد يختلف عن باقي الأعوام التي كانت تطل بوجه مقنع بابتسامة ثم تتحول الابتسامة لآهات مع مرور الأيام ، كم أحتاجك يا سنووايت الآن ، بل كم نحتاجك جميعا لتمنحينا ابتسامة مشرقة أواجه بها ذلك الخفاش الذي احتل غرفتي .

في تلك الليلة لم استطع العودة إلى غرفتي ظللت أتابع الأخبار طوال الليل حتى نمت في مكاني أمام التلفاز و لم أشعر بالعالم إلا حين أيقظتني يد أمي تستفسر عن نومي هنا، أفزعها أن رأت اثر الدموع يغرق وجهي و لهجت في حروفي و أنا أخبرها عن الخفاش ،عن الدماء ، عن أحلام ملقاة على الطريق ، عن الإسكندرية الفزعة التي لم تنم

ثم ركضت نحو غرفتي ، ضوء النهار أعطاني بعض القوة لذا لم أخشى الخفاش ، قمت بتغيير ثيابي ثم استئذنت أمي في الذهاب إلى الإسكندرية ، نعم سافرت إلى هناك لأني شعرت بأن شيء هناك يناديني ، شيء اسمه الواجب

حين وصلت ركضت لإحدى المستشفيات كي أرى توابع زلزال الأمس الذي أجتاح المدينة الساحرة الساهرة البائسة ، رأيت الوجوه الشاحبة غير المصدقة لما حدث ، العيون النازفة بالدم قبل الماء ، تبرعت بدمائي بل لم أتبرع فالتبرع ينم عن اختيار أما ما فعلت فهو الواجب ، لم أشعر بالتعب رأيت والدة أحد الضحايا و هي تقف أمام جسد ابنها الذي غادرته الحياة صامتة ، حتى البكاء لم تستطع أن تجاريه ربتت على كتفها حاولت أن أهدىء من روعها ، كان رد فعلها فقط نظرة رمقتني بها تتفحصني ثم صمتت لتعيد عينيها نحو الجثة كأنها تريد أن تستفيد بكل لحظة في آخر أوقاتها مع ابنها ، مجرد نظرة من أم ترى حلمها يضيع ، صرح حياتها ينهار و هي فقط تراقب .

كانت أفكاري في تلك الليالي تغادرني إلى نيويورك ، في مثل تلك الليالي من العام الماضي كنت أعيش أسعد أيام حياتي ، تذكرت حين مددت يدي بجانبي و أنا أقف أتحدى الريح

، كم كنت غرا ساذجا ، لا أحد يستطيع أن يتحدى الريح ، كنت أظنها تحمل الأحزان بعيدا عنك ، لكنني اكتشفت أنها تحمل العاشق بعيدا عن حلمه . لتصير كل حصيلته من السعادة مجرد ذكرى تؤنسه في الليالي الموحشة

بينما في الصباح و في فناء السجن كعادتنا جلسنا نتبادل أحاديثنا ، و كعادته جلس الشاويش سلامة بجوارنا ، حدثنا عن الانفجار الذي اجتاح الاسكندرية ليلة رأس السنة و حدثنا عن وقع ذلك على جاره (ملاك) الذي هو صديقه قبل أن يكون جاره و كيف صار يلقي عليه نظرة لوم و عتاب كأن (سلامة)من قام بالتفجير

- في كل صباح ، كنا نتبادل السلام و التمنيات بيوم طيب لكن منذ تلك الأحداث تغير صديقي ، أعتقد أن هناك شيء ما انكسر من صداقتنا ، أنا مثله أفزعتني الدماء المسكوبة على الرصيف فلماذا يلقي اللوم عليّ ؟

قلت له :

- لا عليك يا صديقي ، ما حدث ليس بالهين و كفيل بكسر أشياء جميلة عديدة بداخلنا
- ربما أنت محق ، لكن هو يعرفني جيدا فقد تربينا معا ، عامة هو له مطلق الحرية في تقبلي أو رفضي .
- (مطلق الحرية) ! !

رددت الكلمة مرة أخرى بتعجب ثم أكملت :

- يا صديقي لا أحد في تلك البلدة له مطلق الحرية ، بل لا أحد في العالم له مطلق الحرية ، مطلق الحرية لا يملكها إلا طائر يحلق بأجنحته عاليا لا تجذبه الأرض و لا تبهره السماء و لا ترعبه الجبال و لا تسحره البحار ، لكننا ليسنا طيور ، إننا كالكرات على طاولة بليارد هناك يد سوداء تمسك بعصا تضرب بقوة إحدى الكرات لتصطدم بكرة أخرى بدورها تصطدم بأخرى ثم تصطدم الكرات بعضهن ببعض بعشوائية حتى يسقطن في الحفرات جميعا ، الكرات لا تقوى على المقاومة و السقوط هو مصير الجميع .

تدخل الحاج علي و نظر لي قائلا :

- أخطأت يا بني ، ليست كل الكرات قابلة للسقوط ، هناك بعض الكرات يملؤها الإيمان القادر على صنع المعجزات الذي يجعلها تمر على الحفرة دون أن تسقط فيها ، الإيمان وحده هو الذي يردم كل الحفرات ، هناك من الكرات ما يجعلها تصمد أمام بطش العصا و لا تذهب إلى حيث تقودها .

في تلك اللحظة قال (عادل) :

- صدقت يا حاج (علي) لقد رأيت وجوها بائسة ، رغم ضربات العصا القاسية حتى أن بيوتها بلا أسقف تحميها غدر المطر و مع ذلك هي لم تسقط بل ما زالت حالمة بغد أفضل تبحث عن الجمال في اللوحة الأكثر قبحا ، يا (أدهم) يجب أن ترى الجمال الكامن في صدور البشر حتى تعرف أن هناك دائما أمل .

كان الشاويش (سلامة) يراقبنا ثم قال :

- رغم أنني لا أفهم جل ما تقولون لكنني أشعر أن هناك شيء ما بداخلي ، بعض السكينة في قلبي يضخه في جسدي فارتاح ، لكلامكم سحر غريب

هنا اقترب منه الحاج (علي) و همس قريبا من أذنه قائلا :

- يا صديقي ، الإيمان فقط ما يسمو بالروح و يحررها من كل قيد ، لو فقط قلت (لا إله إلا اللّه) و أدركت معناها بأن لا معبود بحق إلا اللّه ، فصدقني عبوديتك للّه هي ما ستمنحك الحرية مما سواه ، لسان ذاكر و قلب شاكر يقودانك دوما للطريق الصحيح و يوقظان ثمار الجنة بصدرك ، فتمنحك ذلك الإحساس الذي تشعر فيه بأن الدنيا سجن المؤمن و جنة الكافر فيجعلك ذلك الاحساس تجود بأغلى ما تملك في سبيل رسم ابتسامة عذبة على وجه من تحب ، حينها ستفهم أن السجن و التعذيب و الإهانة و كل شيء لن يجدي في اثنائك عن ثوابتك و ايمانك.

ارتعد جسد الشاويش (سلامة) فجأة كأن تيارا كهربيا قد مسه ، قبل أن يلتقط أنفاسه بعمق أكبر و يلقي سيجارته بعيدا ، فلا يريد لشيء أن يحرق ما وقر في صدره بعدما استمع لتلك الكلمات ، بينما (عادل) يراقب بصمت لكنني كان هناك خاطر يجول

بتفكيري هل حقا الحرية هي الإيمان؟ و لا تتحقق إلا حين تصفو النفس؟ ما يقوله الحاج (علي) لم استمع له من قبل لكنني اشعر بما يشعر به الشاويش سلامة هناك شيء ما ينمو بداخلي .

في تلك الليلة كانت الأفكار تتزاحم برأسي ما تعلمته في الأيام القليلة الماضية يفوق ما تعلمته طيلة حياتي ، هل حقا تنبع الحرية من معين العبودية لخالق البشر؟ و هل كنت مخطئا حين ظننت أن الحرية هي اتباع الغريزة ؟ أشياء كثيرة تتداخل و تعيدني إلى كل ما عرفت كلمات هيمنجواي و وايلد و رتكي و بو و كويلهو تغزو رأسي .

لا تنسى نقطتي الزيت على الملعقة

دوريان جراي يرى حقيقته في اللوحة

حسبنا أننا لن نقتل الشمس و النجوم و يكفينا اننا نقتل اصدقائنا الصادقين في الود

حلم داخل حلم

عميقا في الدماغ الى زمن سحيق

هكذا ابحرت في كل الكتب و كل حصيلتي الأعوام الماضية من الأدب بحثا عن إعادة صياغة لحقيقتي ، نقطتي الزيت هي من تمنح السعادة ، دوريان جراي لم يصدق مع نفسه إلا حين يواجهها بخطاياها ، مصادقة الطبيعة تجعلك تسمو بروحك حتى تكتشف أن مجرد ايذائها يشعرك بالندم ، الحياة مجرد حلم داخل حلم و الحقيقة فقط هي من تمنحك الوجود ، عميقا في الدماغ جالت أفكاري لتستخلص من أزماني السحيقة شخصيتي ، و لكن أين (جوليا) ؟ هي الحرية التي تقيدني فلا أسبح وحيدا في الفراغ فأضيع بين الكواكب و الشهب ، عينا جوليا مداري و قلبها مجرتي و أحلامها أشعتي

كان الفجر يقترب رويدا بينما لم أنم في تلك الليلة مصاب بأرق الأفكار الصافية ، شعرت بحركة الحاج علي بجواري ثم ذهب تجاه جدار السجن الخرساني ،و مسح بيده الجدار ثم صفق يديه قبل أن يمسح بيديه وجهه ثم كرر ذلك مع ذراعيه ، إنه يتيمم لا بد أن الفجر دنا .

وضع فرشته في اتجاه القبلة ثم جلس جلسته للتشهد و نظر حوله كأنه يتأكد أن الجميع نائم ، ثم صار يدندن بخفوت ، أطرقت السمع أحاول أن استشف ما يقول يبدو أنه يقوم بأخذ أوراده اليومية إلا أنه بعد فترة اتضح لي ما يقول ، كان يقول (الله) يكررها مرارا و تكرارا ، استمع إليه كيف ينطقها ، الكلمة لا ينطقها مجرد لسان لكنها تخرج من قلب مؤمن ، تحمل تيارا كهربيا أشد تأثيرا من كهرباء التعذيب التي اعتدتها لكنها كهرباء ناعمة تجعلك مطمئنا ، السكينة تعم المكان و النور يملأ روحي و أنا أشعر بالسكينة

كلماتكم أيها الأدباء العظماء تحمل الكثير من النور لكن أضوائها لا تعادل ضوء لفظة جلالة تخرج من صدر مؤمن .

لله درك يا حاج (علي) لم أظنك متصوفا قبل تلك الليلة رغم أني مسست الزهد في حياتك بحياتك ،التعايش مع الألم بالإيمان و الهرب من سجن الدنيا إلى نعيم الآخرة و الخوف على نفسك من شر الرياء فتنتظر نومنا حتى تتعبد ، حقا إن الله يحب العبد الخفي .

دخل وقت الفجر راقبته و هو يصلي خاشعا ذليلا بين يدي الله كورقة في مهب ريح ، حينها فهمت أن العزة تأتي من الذل لله و الحرية تولد من رحم العبودية إليه حينها فقط فهمت أن السيدة حرية بل و أمريكا كلها لم تكن إلا خدعة كبيرة حييتها .

14 – للكرات أجنحة

أهواك و لي قلب بغرامك يلتهب

تدنيه فيقترب تقصيه فيغترب

الظلمة يكتئب و يهدهده التعب

فيذوب و ينسكب كالدمع في المقل

أهواك بلا أمل

هكذا كانت تغرد فيروز و تعزف حروفها على قيثارة ألمي ،هل صرت أعشق الألم؟ أم أنني أريد الهرب من نظرة الأم لابنها المسجى في دمائه ، تلك النظرة التي تطاردني طيلة أيامي السابقة .

أريد الهرب منها بتذكيري بحب ضاع و هوى بلا أمل ، لكن قلبي اليوم مثقل بالأوجاع و صار الهوى بلا أمل هو حبي لتلك السيدة و للطفلة في الملجأ و للبطة السوداء ، قلبي مثقل بالأرز الجاف الذي يقوم بتجريح القشرة الرقيقة في قلب الكوسة ، أدهم يتبخر و لا يبقى غير رمادية النيل. فيروز تغني

السهرة انتظر و يطول بي السهر

فيسألني القمر يا حلوة ما الخبر

فأجيبه و القلب قد تيمه الحب

يا بدر أنا السبب أحببت بلا أمل

نعم أيها القمر أنا السبب بل كلنا ذلك السبب أحببناها بلا أمل كيف ليائسين أن يغيروا الواقع ، كيف نزرع الأمل في أرض قاحلة ؟ لا أدري

لكنني يجب أن أعرف الفيروز المختفي من مائك أيها النيل الرمادي لا بد أن يعود للسطح و لا يعكره شيء ، الفيروز القابع في بطنك أيتها الأرض لا بد أن يخرج و يعود بريقه ، الجمال المتدثر خلف النقاب لا بد أن يثور و يمزق نقابه لكن كيف .

كل هذه الأفكار كانت تجول برأسي في الميكروباص المتوجه لقصر الثقافة و صوت فيروز يعلو من المذياع و هي تكرر أهواك بلا أمل

حين وصلت للعمل ، تطايرت كل آمالي و طموحاتي و أنا تلك الحالة المرثية لحقيقة البلد التي تقتل كل الأحلام ، عمل بلا عمل ثقافة بلا قارىء ، عالم من اللاوجود ليس فيه إلا ياسمين و كلماتها المتقاطعة حينا و السودوكو حينا آخر ، لكن في ذلك اليوم لم تكن تحل كلماتها المتقاطعة كانت تتصفح الجريدة و عيناها تزداد بريقا .

- هل الخيول المجنحة دبت فيها الحياة؟
- نعم يا صديقتي الخيول المجنحة تحلق بعيدا و على ظهورها فرسان أشداء ، تونس لفظت طاغيتها و طهرت أرضها من دنسه .
- هل ما تقولينه حقيقي؟ هل ذلك ممكن؟ هل هناك أمل حقا؟
- الأمل موجود دائما لكننا الذين نستسلم لليأس لنبرر فشلنا

اختطفت الصحيفة من يديها و صرت ألتهم الحروف بعيني ، الفيروز يعود بريقه و يلمع و الأمل على مرمى حجر و نافذة الضوء تنير الكهف المظلم و يعم ضياؤها أرجاء الحلم

سعادتي اليوم طاغية لكن ما زالت عيون تلك الأم و نظرتها تعيدني إلى مصر هلا ما نجح في تونس يمكن أن ينجح في مصر ؟

في الأيام التالية اكتشفت أن ذلك الأمل لم يتولد بداخلي فقط بل هناك العديد مثلي رسموا من خيالهم لوحة تونسية جديدة على الأرض المصرية ، حلم التغيير صار ممكنا و عيون البائسين صارت حالمة ، و الدعوات تنتشر للتظاهر في يوم عيد الشرطة كي يحمل تلك الدلالة التي نحملها لهم و ما يفعله قانون طوارئهم بنا .

حين أتى ذلك اليوم الموعود كنت منتظرة متأهبة أريد أن أعرف ما ستئول إليه الأمور هل سيتحول الأمل إلى حقيقة أم سينتهي كما يحدث كل مرة قتيلا على صخرة الواقع ، الساعات تمر الثانية ظهرا الآن و ما زلت أحاول ان أتتبع الأخبار من التلفاز و أغير القنوات حتى أجد أي خبر عن الخارجين اليوم عن الباحثين عن فرشاة جديدة يلونون بها

أرض مصر ، و في تلك الأثناء رأيت على الشاشة مجموعة من الشباب يسيرون أسفل أحد الجسور العلوية و يهتفون و يناشدون الناس أن يسيروا معهم ، إلى أين ؟ لا أعلم الطريق طويل و لا بد أنه سينتهي بهم إلى حيث عادل ، العدد القليل يعني الفناء، بينما أنا و أمثالي أشاهد صامتة . الغريب ان جنود الشرطة تركوهم دون أن يفعلوا ما اعتادوا عليه من قمع ، يبدوا أنهم لا يريدون أن يلبسوا ثوبهم الأسود الذي يرتدونه دوما يوم عيدهم ، المسيرة تزداد ، الناس تلبي النداء ، و صمت الشرطة يزرع في قلوبهم الشجاعة محاولين أن يفرغوا كبتا كامنا في صدورهم أعوام .

راقبت بصمت ساعات تلك الأخبار من القنوات المختلفة حتى رأيتهم قد وصلوا إلى ميدان التحرير ، يهتفون يريدون خبزا و حرية و عدالة اجتماعية ، عند ذلك قررت النزول و الانضمام إليهم ، استئذنت أمي في النزول أخبرتها أنني بحاجة للصراخ ، أحتاج أن أدفن غضبي مع القوم الغاضبين ، وافقت على مضد و أسرعت إلى التحرير

الأقزام لم يعودوا أقزاما ، اللوحة تزداد جمالا و لا يشوهوها إلا أذن فان جوخ آه لو كنا نستطيع أن نمحيها من اللوحة حينها هتف الجمع (الشعب يريد إسقاط النظام) حقا لو حدث ذلك لصارت اللوحة أكثر جمالا و لتحولت المظاهرة إلى ثورة حقيقية، و لكن فليخبرني جوخ هل شعر بالألم حين قطع أذنه؟ هل الدماء شوهت اللوحة أم أنها منحتها عظمة أخرى

الشعب يريد إسقاط النظام

هكذا هتفت معهم غير آبهة بشيء ، من أجل كل البؤساء الذين قابلتهم و رأيتهم في المنطقة العشوائية و الملاجىء و المقاهي ، بل من أجل عيني السيدة التي تراقبني كل حين و هي تشاهد ابنها القتيل .

رددت كثيرا و صرخت معهم حتى تأخر الوقت فعدت إلى منزلي ، و ما ان وصلت حتى شاهدت مواجهات الشرطة مع المتظاهرين ، لقد ظهرت حقيقتهم القمعية ، الصورة التي حاولوا أن يظهروا عليها طيلة اليوم تلاشت حين اقتحمت المدرعات ميدان التحرير كي تطارد الشباب ، تلاشت مع دوي عصي جنودهم على ظهور المتظاهرين ، و مطاردتهم في

الشوارع الجانبية حتى خلا الميدان و ساد الصمت ، لكنني كنت مؤمنة أنه صمت يسبق عاصفة عاتية فاليوم تحطم جزء من سور الخوف و بدا واضحا أننا نستطيع أن نهدم السور كلية

تعلمت كثيرا داخل السجن ، لكن أكثر ما تعلمته أن الحرية الحقيقية لا تحجبها قضبان ، لذا حين بدا الوجه الآخر للسجن في تلك الأيام حين أصبح السجانون أكثر صرامة عندما منعوا عنا الماء أغلب الوقت ، بل و الطعام أيضا ، كانوا كمن يقوم بتجويع وحش للحظة ما حتى إن رأى الفريسة لم يرحمها ،حتى حبسهم لنا داخل العنابر طيلة اليوم و تعمد ايذائنا كل ذلك لم ألقي له بالا ، ما كان يهمني فقط هي تلك الشائعات عن تلك الدعوات للتظاهر التي كانت تصلنا داخل السجن، هل حقا يمكن أن يحدث ذلك ؟ ما الذي تغير في الخارج حتى أيقظ الناس من غفوتهم ؟

و الذي زاد من يقيني أن هناك شيء تغير في طبيعة المصريين هو ما أخبرني به الشاويش (سلامة) أن كل ما يحدث داخل السجن من تكدير هو انعكاس للعصيان المدني الذي يدعون له في الخارج لذا يلزم توفر الأمن .

لكن السجناء لن يتحملوا تكديس الزنازين و العنابر لن يتحملوا كل ذلك التكدير ، الغضب صار قابعا على صدورهم ينتظر لحظة الانفجار .

كان تظهر الفرحة في عيني عادل في تلك الأيام كأنه يقول لنا :

- ألم أخبركم أن ذلك اليوم سيأتي ؟

لم نكن نعرف ماذا يحدث في الخارج لكن الحركة الغير طبيعية في السجن مع زيادة عدد الرواد بالإضافة للشائعات و ما قاله لنا الشاويش (سلامة) عن العصيان المدني كل ذلك ينبيء أن هناك أمر جلل ، كم أتمنى أن أكون في الخارج الآن لأفهم

سألت الحاج (علي):

- هل باستطاعتهم الصمود أمام بطش الطغاة؟
- سيصمدون بقدر إيمانهم أنهم يستطيعون تحقيق أحلامهم

15 – العصا السوداء و الكرة البيضاء

إنه الثامن و العشرين من يناير يوما ليس كباقي الأيام ، في ذلك اليوم كانت كل الدعوات للقيام بمسيرات بعد صلاة الجمعة ، لم أكن لأتخاذل عن ذلك لذا قررت الاشتراك في تلك المسيرة ، أمواج من البشر تتدفق من المساجد من كل حدب و صوب جميعها لها هدف واحد الوصول لميدان التحرير ، لماذا اتفق الجميع على الخروج لماذا لم يتخاذل أحد ؟ إنها أشلاء الأحلام المحطمة القابعة في صدورهم هي من جعلتهم يريدون أن يقتلعوا القبح من لوحتهم الجميلة ،(إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر) كان ذلك البيت لأبي القاسم الشابي يزين بعض اللافتات و الشباب في كل الأرجاء يهتفون بلا خوف ، الأمواج البشرية في حالة المد ، و لن يوقفها أي صخرة حتى تلك المدرعات هناك التي حولها رجال متشحون بالسواد ، لي ثأر معكم أيها السوداويون حين صفعني أحدكم فقتل بداخلي شيء ليس باليسير ، النيل اليوم فيروزي يقص علينا ذكريات عن أمم خاضت المخاطر لتصل للمجد و بجواري رجال و شباب يحملون الغضب داخل عيونهم و صراخهم يزلزل أرجاء الأنحاء (الشعب يريد إسقاط النظام) ، أشعر بالأمن كلما هتفوا و أشعر بالجمال كلما نظرت للنيل ، أنا اليوم منتشية ، كأنني راقصة باليه تتمايل مع موسيقى أوبرالية تدور حول نفسها و تدور و السعادة تغمرها ، و لكن هناك نغمة نشاز أفسدت اللحن ، و دخان كثيف أفسد اللوحة لكنه لم يفقدها الجمال ، القنابل تلقى في إتجاهنا ، الدخان يتصاعد ، أحد الشباب من حولي يرتدي لثاما على وجهه يلتقط القنبلة و يلقيها في النيل وسط ثناء ممن حوله ، الغريب أن النيل لم يشكو لي شعرت أنه يبتسم و يزداد نقاء و هو يبتلع الدخان ، شاب آخر يمد نحوي علبة مياه غازية و يطلب مني أن أغسل عيوني بها ، قال ان هذا يجدي ، كنت سعيدة حقا . حتى بدأ السوداويون بإطلاق أعيرتهم النارية رصاصات مطاطية و أخرى حية ، نحن سلميون أيها البشر لماذا يقمع

الغضب بالرصاص ، نهتف سلمية سلمية ، لكن أيدي الشياطين لا تتوقف عن حصد الأبرياء

الغريب أننا لم نخشى الموت ، كأن الحياة و الموت سيان ، سمعت أحد الرجال من حولي يقول : أنتم لا تملكون مصائرنا ، إن كتب لنا الشهادة فها هي صدورنا مفتوحة .

لم تتوقف مسيرتنا و لم يتوانى أحدنا الكل يطلب الشهادة و اللّه يختار منا السعداء ، لم ابتسم منذ ذلك اليوم و أنا أرى ذلك الشاب الذي كان يسكب في يدي المياه الغازية ساقطا على الأرض أراقب دمائه الطاهرة و هي تزين الأسفلت بلون العزة كانت تطهر أرض مصر من كل الخطى المدنسة التي خطت هنا منذ عهود .

سنووايت يا أميرة الجمال ابحث عنك الآن ، كل من هنا بحاجة لابتسامتك كي تقودهم إلى الهدف و الحلم ، سنطهر الأرض من كل التفاحات الفاسدة المسمومة فلا يتبق غير الأطهار .

تساقط الشهداء لم يثنينا مررنا نحو المدرعات تزكم أنوفنا رائحة الدماء الذكية ، الخوف يتطاير من قلوبنا ليسكن قلوب السوداويين ، بأسلحتهم يتراجعون و بعزمنا نتقدم ، يملؤنا إيمان بأننا نستطيع ، و يملؤهم خزي يسقط قلوبهم في الأقدام ، يتراجعون و نتقدم ، عيوننا يسكنها الحلم و هم عيونهم خاوية ملتاعة ، يلقون قنابلهم من خوفهم على ذويهم ، و بلا أسلحة غير الحق و الإيمان نتقدم ، الجسر يكاد ينتهي ، دنونا من هدفنا حتى وصلنا لنهاية الجسر

انسحب السوداويون و رأينا مدرعات كاكية اللون قادمة ، إنها مركبات الجيش ، الفرحة تغزو قلوب الثوار فللجيش مكانة خاصة في قلوبنا ، و رأينا ما فعله جيش تونس حين أحاط الثوار بذراع و بطش بالفاسدين بالذراع الأخرى .

هتف العديدون (الجيش و الشعب يد واحدة) و أكملنا طريقنا ، بعد ان وصلنا للميدان شعرت بالطمأنينة و رأيت أن من واجبي أن أعود للبيت حتى أطمئن والدتي التي لم أقل لها أنني سأتأخر كنت فقط استئذنت في أن أصلي الجمعة و أن ابقى ساعة او ساعتين فقط في المسيرة ، لذا عدت ، حين وصلت للمنزل كنت فخورة بنفسي فخورة ببلدي ، شعرت

أخيرا أن هناك ما يملأ قلبي ، كانت تجربة فريدة كان يجب عليّ أن أخوضها ، تابعت الأخبار في التلفاز ، غضبت من نفسي حين رأيت بعض الرجال يهاجمون المتحف المصري و يسرقون بعض كنوزه ، عاتبتني لأنني تركت الميدان و تركت بعض الجمال يُسرق ، لكنني لم ألبث أن أهدأ و أنا أشاهد الشباب يحمون المتحف بصدورهم و يطاردون اللصوص .

لكن ذلك لم يكن ليجعلني أكف عن لوم نفسي لأنني رحلت ، دائما الأعمال الطيبة لا تكتمل ، كان يوما تاريخيا بالنسبة لي بل أنني لم أشعر بالحياة في يوم مثله ، لكنني مرهقة مجهدة لذا نمت ، أحلم بوطن جديد تشيده سواعد الشباب .

في صبيحة التاسع و العشرين من يناير صار السجن جحيما ، العبوس على وجوه السجانين و الغضب على وجوه السجناء ، فالمعاملة صارت غير آدمية.

كان الشاويش سلامة يحكي لنا عما حدث بالأمس ، كان يصور لنا كيف تساقطت الشرطة أمام عزيمة الناس و نحن غير مصدقين أن هذا قد حدث ، في ذلك اليوم لم يسمحوا لنا بالخروج من عنابرنا .

تبادلنا الحديث عما حدث ابتسم الحاج (علي)و قال :

- الآن أشم رائحة النصر فالآن الكل يجتمعون على شيء واحد و يقاتلون من أجله بل يبذلون من وقتهم و جهدهم و أرواحهم من أجله ، الآن لن يتراجعوا لأنهم آمنوا بالنصر

قال عادل :

- لقد انتظرت أياما طويلا و أنا أرى فيها خنوع الشعب و صمته ، كم كنت أتمنى أن أكون معهم هناك حيث التحرير حيث الحلم الذي كنت أراه في مخيلتي و الآن يتحقق

أجبته :

- هنا تعلمت معاني مختلفة للحرية ، لماذا نهجر تلك البلد لنبحث عن أجوبة و كل الأجوبة هنا

في تلك اللحظات صدرت جلبة واسعة في خارج العنبر تبع ذلك صوت دوي رصاصات ، الرعب و القلق يعترينا و التوتر يقتلنا ، ماذا يا ترى يحدث بالخارج؟ لا نعلم و لا إجابة تتبادل أعيننا الأسئلة و لا تملك ألسنتنا أجوبة ، و فجأة قام احدهم بفتح باب العنبر و أطلق الرصاصات بشكل عشوائي ، كان يرتدي ثياب الشرطة و كان برفقته عدة أشخاص ، استمر إطلاق الرصاصات في اتجاهنا بعشوائية قبل ان يترك باب العنبر مفتوحا و يمضي هو و رفاقه إلى عنبر آخر ، مضوا مثلما أتوا و لكنهم لم يتركونا كما كنا ، فحين بدأ إطلاق النار تعالت صرخاتنا جميعا الكل يبحث عن شيء يستتر منه من الرصاص ، إلا هو بقي كما هو ربما لأنه مسن لا يقوى على الركض إلى الزاوية كما فعلنا و ربما لأنه لم يفهم ما يحدث و ربما لأنه في عالم مختلف و بُعد آخر لم ير شيئا ، لاحظت أن الذعر لا يعلو ملامحه ، هتفت به و أنا في ركن العنبر و ناديته :

- يا حاج علي يا حاج علي ، اركض إلينا

دون جدوى كان صراخي ربما لم يكن يسمعني ، بعد ان مضى المهاجمون رأيته يسقط على ركبتيه ، كيف تحمل ذلك الالم حتى مضوا ، لم يسقط راكعا على ركبتيه إلا حين رحلوا ، بكل هلع الدنيا فزعنا إليه أنا و (عادل) أسندت رأسه على قدمي ، رأيت الدماء تتدفق من صدره لتطهر قميصي من دنس اعتراه أعوام طويلة ، ليس هناك وقت اسألك عن سر وقوفك ربما سيظل ذلك سرا آخر مثل أسرار عديدة داخل صدرك ، كان يبتسم و هو ينظر لي قال بوهن شديد :

- أدهم ، لقد وجدت حريتي فلا تدع ذلك يفوتك ، سأرحل لكنني معكم وصيتي فقط لا تدعوا حزنكم عليّ يثبط هممكم و أبلغوا (أمنية) أن تنفذ زفافها في موعده و أبلغوها ألا تحزن .

و صمت ، صمت للأبد و رحل إلى حيث كان يريد ،كل أحزان الدنيا لا تعادل ما شعرت به آنذاك ، عادل كان أكثر مني صفاء مع نفسه لذا كان يجهش بالبكاء ، يصرخ ، واآسفاه

عليك يا حاج (علي) أي أسف ذلك بل أي مجد نلته ، المشاعر المضطربة تعتريني لا أعرف ماذا أفعل ، فقط ، صامت أنظر إليه ممدا على ساقي أحاول أن أحفظ ملامحه ، أستاذي الذي لم اعرفه إلا متأخرا .

ولج الشاويش (سلامة) إلى العنبر حينئذ ، نظر إلى المشهد أمامه و جسد الحاج (علي) الممدد على الأرض و رأسه القريبة من صدري ، و بكل ذعر ارتمى بجواره يهزه يحاول أن يستجدي فيه الحياة و حين لم يستطع أن يعيد إليه الحياة صرخ :

- الكلاب ، الكلاب

نظر إلينا نظرة خاوية ،بينما (عادل)ما زال يجهش و يتحدث بصوت متقطع :

- مازالوا يسرقون منا الجمال .

أنا الوحيد الذي لم استطع أن أتحدث فلم استوعب ما حدث ابدا .

نظر لي الشاويش (سلامة) و أخرج سلاحه ، و قال لنا :

- احملوه على أكتافكم ، و هيا بنا لقد رحل الجميع و تركوا السجن مفتوح ، أنا اعرف بيت الحاج (علي) فلقد حملني الحاج رحمه الله أمانة توصيل خطاب لابنته من قبل ، سأحمي ظهوركم و لنمضي.

أشهر سلاحه أمامه و قاوم انهياره و خرج من العنبر قبل أن يشير لنا بالمضي فالطريق آمن ، قاومنا الألم و طوق كل منا كتفه بذراع من الحاج كأنه يضمنا إليه و مضينا حتى خرجنا من السجن بحالتنا تلك ، كم كنت أتوق لرؤية الشمس خارج السجن لكنها اليوم شمس مظلمة حين أشرقت اغربت شمس أقوى شمس الحاج علي

حاول أن يستوقف الشاويش (سلامة)إحدى سيارات الأجرة ، لكن كل السائقين ينظرون إلى ثيابه الرسمية فيسخرون منه و من الشرطة و يمضون .

إلى أن وقفت إحدى السيارات قال سائقها موجها حديثه للشاويش :

- أما زلتم أحياء يا غربان مصر ؟ (و ضحك بسخرية)

- بلى ، لكن هناك من هو خير مني ، استشهد ، فهل ان تلطفت أن تقوم بتوصيلنا

نظر السائق إلى وجه الحاج (علي)البشوش رغم مفارقته الحياة لم يستطع أن يرفض ، وافق على الفور و مضينا في طريقنا إلى بيته

كان الشاويش يجلس بجوار السائق يعتريه الصمت ، كان يشعر بداخله أن هذا ذنبه لكن لم يبدِ ذلك ، ظللنا صامتين طوال الطريق نتذكر تلك الشهور القليلة جدا التي قضيناها معا نتذكر كل ما تعلمناه من الحاج ، حتى الحرية و مصر التي كنا نتمنى ان نراها مجددا لم تكن لتبهرنا أو تأسرنا أو تخطفنا من ذكرياتنا

و أخيرا وصلنا إلى المنزل ، فتحت لنا (أمنية) و الهلع و الحزن يفيض من عينيها كانت تجهش بالبكاء و تصرخ ، تركناها تنفس عما بداخلها ، اتصلت باقاربها و (أسامة) الذين كانوا في الميدان وقتئذ ، و انتظرنا حتى عادوا ، أخبرناهم وصية الحاج بأن ينفذوا زفاف (أمنية) في وقته ، فأخبرتنا أمنية أن خطيبها بعد أن اعتقل والدها رحل و فسخ الخطبة ، خشى على نفسه منهم ، و قالت أنها لم تخبر والدها حتى لا تؤذي مشاعره

قلت لها :

- مما تعلمته من والدك أستطيع أن أخبرك أنه لا يوجد شيء يستطيع أن ينال من بشاشته

هنا تدخل أسامة و قال :

- كل ذلك كان بسببي أنا الملام الوحيد هنا

تمالكت أمنية نفسها من حزنها و قالت :

- كلا يا أسامة والدي فعل ذلك لإيمانه الكامل بك و لرضائه عما تفعل لا تلم نفسك
- أمنية هل تسمحين لي أن أنفذ آخر أمنياته ، هل تتزوجينني؟

تلعثمت أمنية و بدا عليها الخجل فأكمل أسامة:

- أعلم أن ذلك ليس ميعادا مناسبا و ما زال الحاج لم يدفن بعد و لكنني أريده أن يكون بيننا و أنا أخطبك منه ، أشعر أنه يسمعني الآن و يبتسم و اعلمي أن زواجي منك ليس مجرد وصية انفذها فأنا أهواكِ منذ أمد بعيد و ما أوقفني عن خطبتك هو شعوري بأنني مطارد طيلة الوقت أما الآن فلن يطاردني أحد و صرت ملك نفسي

دمعت عينا أمنية و قالت :

- من افتداه أبي هو جدير بالتأكيد أن يكون زوجي .

لم تستطع حينئذ أن تقف على قدميها و ارتمت على صدر ابيها تنهل من نوره ، وقفنا أنا و عادل كالمصعوقين نشاهد تلك الجنازة التي تكللت بأن أصبحت زفافا سيتم في خلال أيام، كيف هم هؤلاء البشر ، هل هم حقا مثلنا؟ حزنهم على الحاج لم يمنعهم من الحياة بل رضوا بوصيته و نفذوها رغم ما بصدورهم من ألم ،بعدها بساعات كنا نصلي الجنازة عليه كانت جنازة مهيبة و مضينا نواريه في مثواه الأخير و نهيل عليه التراب الذي لا يصل أبدا إلى قلبه .

و مضى الشاويش إلى بيته و تواعدنا أن نلتقي غدا في الميدان بينما ذهبنا أنا و عادل في طريقنا

سألت عادل :

- هل سيعتبرون الحاج علي يوما شهيدا؟

- لا أعتقد ، فالبعض سيقولون أنه مجرما حاول الهرب و البعض سيقولون أنه متصوف فاسق ، لكن صدقني كل ذلك لن يهمه فهو عاش عليا و مات عليا و رفعه العلي إلى مكان علي ، لم يهتم بما يقولون في حياته و لن يهتم به في مماته

حينها فقط لم استطع أن أمنع نفسي عن البكاء حينها فقط سقطت دموعي و أبت قدمي أن تحمل جسدي فجلست على أحد الأرصفة و (عادل) يقف بجواري يعلم ما بي ، كان يعرف أن لحظة انفجاري قادمة فلقد تمالكت نفسي طيلة الوقت ، و أخيرا وقفت لأكمل طريقي معه قال لي:

- فلتأتِ معي إلى منزلي نبيت ليلتنا و نغير ملابسنا و ننظف أنفسنا و غدا نذهب إلى الميدان

- أشكرك يا صديقي بل غدا سأمر عليك و نذهب معا أما اليوم فهناك مكان يجب ان اذهب إليه أولا

وصلنا إلى منزله و بقيت وحيدا أتنسم رائحة مصر التي تركتها فتركتني ، اسير في الشوارع التي افتقدتها و فقدتني ، أهيم فيها على وجهي حتى وصلت إليه إنه منزلي ، قمت برن الجرس و فتحت الباب كنت أتمنى أن ألقي نفسي بين ذراعيها لكن تلك الحقائب التي بجوارها استوقفتني و بادرتني هي بالسؤال :

- أدهم؟ متى أتيت من أمريكا؟ و كيف تأتِ هذه الأيام و أنت ترى البلد بتلك الحالة؟ ثم ما تلك القذارة التي تعتريك و تلك الملابس التي ترتدي ؟
- إنها قصة طويلة يا أمي سأحكيها عليكِ بعد أن آخذ حماما و أبدل ثيابي
- ليس هناك وقت ، ف(ضياء) سيمر عليّ الآن كي نلحق بالطائرة المغادرة إلى لندن ، أنت تعرف ما يحدث في تلك البلد و ليس لنا مقام هنا بعد اليوم
- سترحلين؟
- نعم ، أراك بخير يا ولدي سأبعث إليك بخطابات حتى تلحق بنا إلى هناك

ثم وضعت يدها في حقيبتها و أخرجت رزمة من المال ووضعتها على الطاولة أمامي قائلة :

- أعلم أنك لا تحب (ضياء) و لا تعشق ماله و قد آليت ألا تصرف منه لكن تلك الرزمة من مالي الخاص فاقبلها يا بني

لم انطق بحرف تركتها و مضيت في اتجاه الحمام و حين غمرتني المياه تذكرت (ضياء) ذلك رجل الأعمال الذي تزوج من والدتي ، لم أحبه يوما لذا حين أتت فرصة السفر لأمريكا رحلت لأتركه ، حتى في أمريكا رفضت أن يعطيني مالا و آليت على نفسي أن أعمل في محطة للوقود ، لم أشعر ابدا باللطف تجاهه ، و الآن يأخذ أمي و يهرب بها بعيدا و لكن اين أمي؟ التي لم تعرف ابدا أنني مفقود منذ شهور عديدة و لم تشعر بألمي ابدا ، آه يا أماه لقد رحلتِ عني منذ زمن و ليس اليوم .

في صباح يوم الأحد الثلاثين من يناير كان يوما مختلفا بالنسبة لي ، فلقد انتظرت الصباح كثيرا دون نوم رغم أن هذا أول يوم أرقد فيه على فراش وثير منذ شهور عديدة ، ربما جسدي أدمن يبوسة الفراش و قسوته ظللت أفكر فيما مر عليّ منذ رحلت إلى

أمريكا و عدت منها ، جوليا ، جون ، سامنتا ، ستيف براون ، جورج كاسيدي، المحققين الذين قاموا بتعذيبي ، السجانين في السجن ، الحاج علي، كلهم أشخاص مروا عليّ في ذلك العام و انتهت علاقتي بهم تماما ، القطار يمر بمحطات عديدة و لا يتوقف أبدا لكنه في كل محطة يمر بها يرينا شيئا لم نكن نعلم بوجوده من قبل ، آه يا جوليا يا حلم الصبا لو كنت أعلم ، كنت ألقيت بنفسي خارج القطار كي أبقى في محطتك للأبد ، و أخيرا أتى الصباح كي أهندم نفسي و اذهب إلى عادل أحضرت حقيبة وضعت فيها ما يمكن أن أحتاجه حتى أبقى هناك و لم أنسى أن أحمل معي رواية (الخيميائي) لأنني كنت مثل بطلها أبحث عن اسطورتي الخاصة في ميدان التحرير .

كان الشاويش سلامة هناك و كانوا ينتظرونني كي نذهب إلى ميدان التحرير ،كان الثلاثون من يناير هو يوم ذو طابع خاص و نكهة خاصة لدي ، حين وصلنا هناك ابتلعني المشهد داخله ، لم أكن أظن أن كل هؤلاء البشر يحيون في مصر ، اللافتات تنتشر بغزارة في الميدان ، و رغم الروح الدافئة وجدتني غريبا ليس لي أصدقاء هنا و لم أعشق يوما الازدحام كنت أريد أن أنأى بعيدا بنفسي لذا قررت الانضمام للجنة شعبية على أطراف الميدان وكذا فعل مثلي عادل الذي قال :

- الجمال هنا يستحق أن نزود عنه بأرواحنا

16- صمود الكرات

الأيام تمر و الثوار مازالوا في ميدانهم رابطين لم يعبئوا بحظر التجول الذي فرضه الحاكم العسكري ، لأنهم الآن بعد أن تأكدوا من قوتهم أسقطوا شرعيته ، كنت في ذلك اليوم الاثنين الحادي و الثلاثين من يناير هناك و كان الوقت عصرا، المكان يعج بالبشر ، الأمواج ما زالت تتدفق ، رجالات الجيش يحرسون المداخل و يظهرون الود للثوار ، حتى أنني استمعت لبعض القصص أن هناك من الثوار من ينامون تحت دبابات الجيش حتى يتأكدون أنهم لن يغادروا الميدان ، كانوا يشعرون بالأمن فقط حين ينظرون إلى زيهم العسكري .

لكن أزيز طائرات يحلق فوق الرءوس ، الطيور القاتلة تصرخ بأعلى أصواتها لتلقي الرعب في صدور الرجال ، ماذا هناك هل قرروا قتلنا بصواريخ الطائرات؟ كان الرئيس اليوم في غرفة عمليات الجيش لكن هل قرر الجيش الحنث بعهوده؟

الهتاف يزداد من حولي (حتى إن قصفتمونا بالطيران فلن نغادر الميدان) التحدي و العناد و الصبر و المثابرة كانوا هم فقط أسلحتنا في ذلك اليوم قررت ألا أترك الميدان مرة أخرى ، لن أتركهم وحدهم رغم أن الطائرات غادرتنا و رحلت .كنت أود الاتصال بوالدتي و أخبرها أنني اريد البقاء لكن خطوط الاتصالات مقطوعة لذا أخذت القرار بالبقاء و همست لنفسي سامحيني يا أمي ،رغم الأجواء الباردة لكنني كنت أشعر بالدفء و أنا أتسامر مع بعض الفتيات في ذلك المساء ، كونت صداقات جديدة و تعرفت على أكثر من سنووايت جديدة ، الابتسامات تتوزع على وجوه الجميع و الضحكات و حكايا الجدات في المساء عن الثعلب المكار الذي ينتظر نوم الحملان حتى يهجم عليهم و يضرب ضربته ، كنا نضحك كيف تلك القصص كانت ترعبنا و كنا نتصورها حقيقة ، قصصت عليهم قصة سنووايت التي

يحفظونها عن ظهر قلب ، و أخرى قصت علينا قصة أليس التي تهرب من الواقع إلى الحلم .

بعد تلك الأحاديث قمنا نصنع لوحاتنا فغدا الثلاثاء مليونية جديدة ، الميدان سيكون مكتظا و الأعداد ستتدفق أكثر و أكثر ، اخرجت لوحة ضخمة كتبت عليها (ارحل حتى يطفو الجمال على السطح).

في الصباح تدفقت الجموع من كل أنحاء مصر ، و الازدحام الذي كان الميدان صار اضعافا مضاعفة ، تتعالى الخطابات و الهتافات من المنصة (ارحل .. ارحل) لن نرضى ببقاء القبح ثانية في أرضنا قررنا إعادة تهيئتها من جديد حتى نبث في أراضيها حضارة جذورها ضاربة في أراضيها حان وقت حصاد ثمارها ، الفراعنة رحلوا فلماذا أنت باقي ؟

لم نشعر في ذلك اليوم بتعب أو انهاك رغم اننا لم نتوقف عن الهتاف و رغم البرد كان الدفء يعمنا لأننا متجمعين معا ، البرد لا يهاجم إلا الشاة القاصية هذا أول ما تعلمته في ذلك الميدان ، المشهد الخلاب و اللوحة الرائعة التي فيها كل شخص يمثل جزءا منها يعطيها من حياته و روحه جمالا يفوق جمال كل ما أبدعه الرسامون العالميون ، فان جوخ نفسه لا يستطيع أن يوحي لنا بذلك الجمال .

لم أظن أنني سأنغمس بسهولة في ذلك النسيج ، إلا أنني كونت صداقات عديدة ، الناس قادمون من جميع الأنحاء و البلاد ليشاركوا في تلك المظاهرة أسموها مليونية ، و هي تستحق ذلك اللقب بجدارة ، الأعداد المتدفقة تفوق الخيال ، و أنا على أطراف الميدان أراقب و أتأكد أن من يلج الميدان ليس بمندس أو ممن يريدون إثارة الذعر في الثوار ، كنت أشعر بمتعة خاصة أخيرا وجدت لي عملا أفخر به ، و هو حماية كل هؤلاء ، الآن حصلت على اسطورتي الخاصة، اهتف معهم حينا و استمع لخطابات المنصة حينا و أبحث فيهم عن أصدقائي القدامى فلا أجد الكل هنا له ملامح جديدة و حياة جديدة ، مصر تغيرت كثيرا منذ رحلت عنها بل منذ خرجت من السجن .

الشعب يريد إسقاط النظام

كان ذلك الهتاف يزلزل الميدان حين تردده ملايين الحناجر و يحمل صداه صراخ ملايين المعذبين المردة يخرجون من قماقمهم و براكين الغضب تثور ، كان ذلك اليوم من أسعد ما رأيت في حياتي ، أراقب اللافتات التي تحمل الكثير من اللاءات ، تلك اللاءات التي حرم منها المستضعفين كثيرا ، و مع اللاءات كانت هناك ابتسامات و ضحكات ووجوه بشوشة و قلوب واثقة من النصر حتى أتى المساء .

في تلك الليلة خرج رأس النظام خطيبا يخطب ود الثوار ، قال انه سيلاحق الفاسدين قال إنه سيطبق أحكام القضاء على مجلس الشعب ، قال أنه لن يرشح نفسه ثانية و أن الوطن باق و الأشخاص إلى زوال ، أخيرا اعترف الفرعون أنه ليس إلها ، لكنني لا أصدقه و العديد هنا لا يصدقونه فكيف يصدقونه و هذه أثر فأسه دماء تغرق الطريق إلى التحرير ، من يقتل شعبه هو يعرف جيدا أن القصاص قادم ، ما ان انتهى من خطابه تاركا الميدان في حالة من التشاور و البحث فيه ، حتى بدأت ليلة الرعب طلقات مجهولة المصدر تحصد بلا رحمة أرواح البشر ، أن تكون واقفا فتسمع من خلفك صوت ارتطام بالأرض ثم صراخ ، ليس الرعب في أن تواجه الموت لكن الرعب في أن تواجه المجهول ، ألا تعرف من أي جهة يغزو حصونك ، كانت ليلة دامية بحق ، شعرت بأنني مقصر في أداء واجبي و أنني كان يجب عليّ أن أحميهم بصدري لكن و آسفاه لا أستطيع . رأيت شابا في عمر الزهور تلقى صدره إحدى الطلقات التي لا تخيب أهدافها ابدا و يسقط ليصمت أبديا بينما يفوح من دمائه شذا عطر يعم الميدان ، قد جاء التأكيد يا رأس النظام و فهمنا الآن الخطاب .

الموت يغمرنا الآن ، أشعر بهلع أمي و هي تراقب الأخبار غير مصدقة بأن مشروعها الوحيد في تلك الحياة تتقاذف الرصاصات من حولها ، (أليس) هكذا أسميها تلك الفتاة التي قصت علينا ذكراها الآن ملقاة على الأرض ترتشف من الحياة آخر أنفاسها و ترحل ، من يطلق الرصاص؟ هل هم بشر؟ كيف يقتلون هكذا.

الآن صمتت (أليس)و عرفت أن الأحلام هي فقط تسكن خيالها أما الواقع فمرير .

انتظرنا نور الصباح و القتلى يتناثرون من حولنا في ليلة الرعب القاسية ، و حين أتى توقعنا أن يحمل لنا الأمن إلا أنه خان ثقتنا فيه ، أتى الصباح مع ملثمين يمتطون خيولا و جمالا و بأيديهم أسلحة بيضاء يقومون بغزو الميدان ، أشعر أنني أحيا في فيلم تاريخي و أن هناك منهم من سيصل إلي و يقول : ثكلتكِ أمك

أمي ؟ نعم أمي بالتأكيد الآن سيقتلها التوتر و الخوف عليّ اخرجت هاتفي أثناء تلك اللحظات التي يسود فيها الهرج و اتصلت بها ، كانت تحاول أن تظل متماسكة و هي تقول لي : فقط كوني بخير ، و اعملي على أن تعودي لي سالمة

الجرح الغائر يا أماه يزداد و اجتزازه لم يعد شيئا هينا ، الدماء تغرق الميدان و مازال الثوار صامدون لا يتراجعون ، انضممت إلى المستشفى الميداني كي أحاول أن أضمد جراح الزهور و أساعد في إعادة البسمة للوجوه ، الغريب أن الجميع من حولي كان يملؤهم الثقة بالنصر

كنت واقفا في طرف الميدان بعد الليلة الدموية فوجئت بقدومهم على الجياد و الجمال من ناحية الجسر ، ملثمي الوجوه قذري الثياب منطلقين بسرعتهم القصوى نحو الميدان بأيديهم أسلحة بيضاء يلوحون بها في الهواء فنسمع صوت الريح و هي تئن بما تحمل، أشعر بالخيول يجهدها ما تحمل كأنها غير راضية أن تتورط في تلك المذبحة ، انطلقت بكل قوتي في الصفوف الأمامية أواجه الزحف القادم من القرون الوسطى ، عصيهم تضرب الكرات بينما الكرات صارت صلبة لا تنجرف مع العصي هناك شيء قوي يمحو الحفرات و يجعل الكرات أقوى، أعزل كباقي رجال الميدان لا أحمل غير قدر من الغضب و قدر اعظم من الاصرار ، أوقعنا البعض منهم في الأسر بينما بدأ تغيير المعركة إلى منحنى آخر حيث بدأ بعض منهم في قذف الحجارة و قنابل المولوتوف نحونا ، بدأ الشباب من الميدان في تكسير الحجارة و تبادل الرمي معهم ، الدماء تغرق الميدان و كل من هو في الصفوف الأمامية معرض للقتل هذا لم يزعزعني و لم يجعلني أتوانى أو أعد للخلف ، ما رأيته من تعذيب العام الماضي جعلني أكثر اصرارا على خوض المعركة حتى تعلو كلمة الحق ، تعجبت أن معركة في القرن الحادي و العشرين تدار فوق أسنام الجمال ، هالني شاب

رأيته يسقط بجواري حين لكزه أحد البلطجية بسلاحه الأبيض كنت أسمعه يقول قبل سقوطه (اقتلونا حتى لو انتهينا سيخلفنا من يقتلعكم ، الموت لا يكون إلا مرة واحدة و قد متنا من قبل فالآن حياتنا خالدة) كان يجري بكل قوة نحوهم لا يؤمن بمبدأ الكر و الفر فهو دائما كان مُكرا غير مفر حتى وجد نفسه وحده بينهم و لم يتركوه إلا جثة هامدة لن أنسى دماؤه و هي تسيل لتغرق الأرض التي منحتنا الاحساس بالحياة .

في ذلك الوقت كان عادل بجواري حين تلقى حجرا شج رأسه فحملوه للمستشفى الميداني لم أذهب معهم راقبته بصمت و تركته يذهب إلى هناك معهم فقط لم أشأ أن أدع الحرب المستعرة حتى من أجل (عادل) .

تعززت أعدادنا حينا بعد حين ، فدنت لنا الغلبة لم تؤرقنا الحرب المباشرة لكن ما كان يقلقنا القناصة و رصاصاتهم التي تتناثر حولنا لتعرف هدفها من عيون و قلوب الرجال ، يوم كامل لم أبرح مكاني يوم كامل من القلق و التوتر و الخوف قبل أن ينتهي كل ذلك

لم اصدق نفسي حين رأيته ممددا أمامي تغرق الدماء وجهه و تكاد تخفي عينه ، كنت أحاول مسح الدماء من وجهه و أطبب جرحه ،كان فاقدا للوعي بينما أنظر إليه أنتظر تلك اللحظة التي يفتح فيها عينيه .

- عايدة ؟ أنتِ حقا عايدة؟
- نعم أنا هي ما الذي لا تصدقه؟ أنني هنا؟ أم أنني أطبب جراحك بعد أن كنت أنت الطبيب لي (كنت ابتسم و أنا اقول ذلك)

ضحك رغم ألمه قائلا :

- بل أعرف أنك ستكونين هنا منذ البداية
- بحثت عنك طويلا هنا ، أين كنت الفترة الماضية؟
- في السجن
- أشياء كثيرة حدثت و أحداث مريرة مرت كنت انتظر منك أن تريني الحقيقة كي أفهم

- ما دمتِ هنا الآن فأنتِ صرتِ تعرفين الحقيقة
- اشتقت لك ، لولاك لكنت ما أزال قابعة خلف نقابي
- لا تقولي ذلك بل لولا عشقك للجمال ، فقط أوقفي جرحي عن النزف كي أعود لموقعي
- أعلم أن شيء لن يثنيك عن العودة إلى الصفوف الأمامية

فعلت كما علمتني امي ، طهرت الجرح ثم حزمته جيدا كي يعود كما كان إلا من اثر ضعيف فالجرح الذي لا يترك أثرا يعود أعمق

انطلق عائدا إلى صفوفه الأمامية بينما تلاحقه عيني إلى هناك

17- سقوط الكرة السوداء

في الأيام التي تبعت تلك الموقعة هدأت الأجواء في الميدان حتى أصبح الجو أكثر مرحا فيه ، هنا البعض يغني و آخرون بجوارهم يتبادلون الحديث عما سيحدث بعد سقوط النظام و هنا رجال يتدراسون القرآن و يقرئونه ، و هنا بعض الفتيات يضحكون و هناك بعض الفتية يرسمون ، الاحساس بالألفة و المودة و أن لك أهل و عشيرة تفوق كل ما كنت تحيا معهم ، الآن مصر جسد واحد الكل يعرفون بعضهم رغم انهم لا يعرفون اسمائهم .

في ذلك اليوم أخبرني (عادل) أن (أسامة)اتصل به و قال له أن زواجه من أمنية سيكون اليوم في ميدان التحرير ليشاركهم الجميع الفرحة و نشاركهم أنا و عادل تنفيذ وصية الحاج علي ، أمنية كانت مبهرة فهي من زينت ردائها الأبيض بلا زينة و بهرجة كانت عارية الوجه من المساحيق فهي صادقة بلا تكلف ابتسامتها تبعث دفئا و تضفي روحا من الحلم ، أما اسامة ابتسامته كانت تواري شيئا ما يخفيه ربما احساسه بالذنب في كل ما حدث للحاج علي بسببه ، لا يا أسامة الحاج علي لم يشعر بالغبن أو الظلم أبدا دع عنك هواجسك فقط أسعد ابنته و احفظها جيدا .

اقتربت منهما احتضنت أسامة كنت أشعر أنني احتضن الحاج علي لم أتمالك نفسي من البكاء ، أمسك عادل برسغي وازاحني بعيدا عن المنصة و همس في اذني :

- تمالك نفسك ، لا تفسد فرحتهم

تمالكت نفسي أراقب الزفاف ، طفلة صغيرة تحمل باقة زهور تقدمها لأمنية ، تضحك الطفلة بينما أمنية تقبلها ، شعرت بالدفء في ضحكاتها و السعادة تعم الميدان ، شعرت أننا انتصرنا و أن النظام سقط حينها حتى و ان لم يسقط كنت اود أن اهتف :انتصرنا انتصرنا ، لكن هذه ليلة أمنية و أسامة لذا فلا يجب أن يعلو صوتا فوق صوتهم .

أراقب الفرحة و اتنسمها و استنشقها جيدا و انظر إلى الوجوه النورانية من حولي بكل تفاؤل .

أخبرني (عادل) أن اليوم ستزف ابنة أحب الناس إلى قلبه ، و أن الزفاف سيكون في الميدان لذا اقتربت نحو العروسين و انتظرت قدومهما بفارغ الصبر ، كنت احتاج إلى فرحة ما تنسيني أنين الآهات و لون الدماء الأحمر في المستشفى الميداني .

كان العروسين رائعين ، أحببت أمنية حين رأيتها من أول وهلة تمنيت أن تصير صديقتي ، سأطلب من عادل أن يعرفني بها قريبا .

راقبت الضحكات و البسمات في عيونها و اختلست النظر إلى أسامة كان هناك من يحتضنه بقوة ، شعرت كأنني أعرف ذلك الرجل الذي يحتضنه راقبته كان يحاول أن يمسح دموعه بيديه وجهه لا يتضح لي لكنني اشعر أنني أعرفه ، كأنه هو ، لكنه هناك في أمريكا ثم كيف يعرف عادل الذي يأخذه من يده و يبتعد به عن المنصة بالتأكيد ليس هو المسافة بعيدة بعض الشيء عن المنصة لا تدعني أرى بدقة لكن شيء بداخلي ، قلبي ينبئوني أنه هو ، حتى و إن لم يكن هو فقلبي عاد إليه داؤه ، آه يا أدهم هل أنت حقا هنا ؟

هل ستعود إلي؟ لكنني لفظتك أو أعتقد أنني فعلت ذلك خوفي من المواجهة منعني من اللحاق به كنت انتظر أن أقابل عادل كي اسأله لكن ما حدث في اليوم التالي جعلني لست بحاجة لسؤاله فاليوم الخميس العاشر من فبراير كان الحديث الدائم أن خطاب التنحي سيصدر اليوم لذا كانت الثقة و الفرحة تعمان المكان و الترقب هو سمة الجميع لذا حين قام المسئول عن المنصة بالبدء في الحديث كان الجميع ينصت بتمعن كان يقول :

- اسمعوني ارجوكم ، على السيد (أدهم يوسف البابلي) إن كان موجودا القدوم للمنصة هناك صديق من أمريكا ينتظره

ظل يكرر الحديث مرارا ،و في كل مرة حين اسمع الاسم يصيبني الارتباك هو بالفعل موجود؟ و الحديث عن صديق من أمريكا حيث كان بالتأكيد هم يقصدونه لم استطع أن أمنع نفسي من الاقتراب بحذر من المنصة في انتظار قدومه و انظر بخوف و هلع ممتزجين بالشوق إلى كل من حولي حتى ظهر

في البداية حين استمعت لمكبرات الصوت تردد اسمي تعجبت، من يعرف اسمي كاملا هكذا ، ثم من ذا هو الصديق الأمريكي ، الدهشة و التعجب قاداني أن أذهب حيث المنصة أقدم قدما و أعيد أخرى و أنا أقول لنفسي بالتأكيد انه تشابه اسماء .

و بينما أمر بين المتظاهرين أخترقهم إلى المنصة وقعت عيني عليها ، تلاقت أعيننا عايدة؟ هل هذا حلم آخر؟

استيقظت بداخلي هواجسي ، كل ما مررت به من عذاب هو لأنني لم أهتم بقلبك و وطأته دون رحمة ، اغفري لي و اصفحي عني

كان حديثي صامتا يعلو بداخلي و لا يصل للساني ، لم أقوى على الحديث إليها، فقط عيوني صارت أكثر تأثرا فاضت بالدمع بينما اراقب عينيها الدامعتين و أنا أكمل طريقي نحو المنصة

هل عيناه حقا تدمعان؟ هذا أول مرة ارى فيها أدهم يبكي لا بل ليس الأولى رأيته أمس يبكي في الزفاف بالتأكيد كان هو .

لم أعلم أن قلبك صار رحيما شفيقا هكذا يا أدهم

لكنني لا أستطيع التقدم او ارتمي بين أحضانك كما كنت أفعل في كل الليالي التي لم يفارقني فيها طيفك شيء ما انتزعك من ذراعي و حملك بعيدا عني ، عيناي ما زالتا تفيض بالدموع كلما فتحت صندوقك الذي أحمل فيه روحي ، اذهب يا أدهم و لا تعد فأنا في طريقي لأشفى منك

وصلت للمنصة اقتربت من أحدهم قلت له :

- أنا أدهم يوسف البابلي

صافحني ثم ذهب بي إلى أحد الرجال ملامحه ليست مصرية قدمني إليه و تركني معه ، ذهبت معه بعيدا عن المنصة بينما هو يخاطبني قائلا :

- بالتأكيد لا تعرفني ، أنا بول ستيوارت أعمل مراسلا لمحطة فضائية أمريكية هي ذاتها نفس المحطة التي تعمل بها سامنتا هيرناندیز ، هل تعرفها ؟

أصابتني الدهشة ، سامنتا؟ تذكرت تلك الأيام الأروع في حياتي ، تذكرت حديثي التلفزيوني مع سامنتا بل جون أوه يا لها من أيام

- بالطبع أتذكرها
- إذا فأنت تعرف جوليا كاسيدي؟
- و هل يجهل المرء أروع ما في نفسه؟
- يا للعشاق

قالها و هو يضحك قبل أن يمد يده برسالة يقدمها نحوي قائلا

– هذه الرسالة وصلتني بالفاكس أمس ، و طلبت مني سامنتا أن ابحث عنك في الميدان فكما تقول سامنتا أنهم يعرفون مدى ايمانك بالحرية و حبك لها لذا بالتأكيد ستكون هنا قبل ان يتركني بول ليعود للمنصة و يكمل عمله قال لي :

- ان اردت ان ترسل ردا على ذلك الخطاب فقط اعطيني اياه و سأقوم على توصيله.

شكرته و صافحته ثم أمسكت الرسالة قربتها من انفي كي اتنسم شذا عطرها بينما فتحت عيني لأرى (عايدة)تراقبني ، آسف يا عايدة لم يعد قلبي ملكي

رأيته يغادر المنصة برفقة ذلك الأجنبي بينما بداخلي اسئلة عديدة يبدو أنني لم ابرء منك تماما يا أدهم فالكثير من الاسئلة تعتصرني .

رأيتك تأخذ منه رسالة و تقربها من أنفك كمن يرتشف منها اكسير الحياة

ما الذي يوجد بتلك الرسالة ؟

و ما لي بها هو الآن ليس ملكي هو انطلق بعيدا و رحل ، فارق الفرس مربطه و انطلق نحو الفيافي تاركا مروج الوادي يابسة .

ما تلك النفس البشرية الفضولية التي تبحث عن اجابات لاسئلة قد تقتلها

ارحل مرة أخرى يا أدهم و اتركني ارجوك لن أتحمل أن أراك أمام عيني مرة أخرى

انعزلت عن باقي المتظاهرين و دخلت إحدى الخيام يحملني الشوق حملا لأن أقرأ تلك الرسالة

(حبيبي أدهم

لقد صرت أخاطبك بأدهم و تقيدت بالهاء بين الدال و الميم أشياء كثيرة تعلمتها منذ اختفيت .كنت أعلم أني سأجدك هناك حيث تجتمع الكرات معا لتثور على العصي فأنت طائر يهوى الانطلاق و لن يفوتك ذلك الحلم أبدا ، أصلي من أجلكم و من أجل أن تعود فلقد تعلمت البكاء من بعد رحيلك ، هل رأيت فينوسا تبكي من قبل؟

أين أنت يا أدهم بحثت عنك كثيرا سألت عنك البدر و أودعته نارا متأججة من صدري لعله يرحمني و يوصلني بك ، الجنون يا عزيزي هو حالتي منذ اختفيت ، أن تجد سعادتك قبل ان تتلاشى من بين يديك أقسى كثيرا من أن تؤمن أن السعادة شيئا خرافيا لم تخلق بالعالم ، ماذا فعلت بي يا أدهم كنت قبلك طفلة تلهو و ترقص و تراقب الطائرات الورقية و هي تعانق السحاب و الرياح تحملها ببهجة إلى أعلى ، فصارت الريح الآن محملة بالأحزان مثقلة بها لا تقوى على حمل الطائرات ، تساقطت طائراتي و وطأتها الأقدام ، أقدام أبي و ستيف براون حين كانا يحتفلان في منزلنا بالقضاء عليك أصغيت السمع دون ان يرياني إلى ما يقولان فعرفت تلك الخطة القميئة التي قاموا بها البداية كانت عندما طلب ابي من ستيف أن ينحيك جانبا عن طريقي مقابل بعض المال ، فما كان من ستيف – الذي كان يطارد أبو قتادة الموصلي في ذلك الوقت و لم يستطع القبض عليه لكنه اقتنص هاتفه المحمول – إلا أن قام بإجراء اتصال بك من هذا الهاتف دون أن يلحظه باقي أفراد الشرطة ، ثم أعطى أبي بعض الكتب التي تحث على الإرهاب ليضعها في غرفتك ،استمعت لحديثهما و هم يضحكان و يحتفلان بذكائهما و إماطتك من طريقي ، سمعتهما و قلبي يئن و يصرخ لذا لم يكن

أمامي سوى الرحيل جمعت حاجياتي و رواياتك و كرتك المائية من منزل أبي و رحلت ، رفضت أن أترك نيويورك و أذهب لأخي في واشنطن فنيويورك تحمل لي الكثير بل تحملني بداخلها ، حياتي هنا، هنا قابلتك و هنا عشقتك،لذا لم أجد أمامي سوى جون استغيث به فتدبر لي منزلا بجوار منزله هو و سامنتا ، نعم لقد تزوجا بعد رحيلك لم تتحمل سامنتا فكرة أن يرحل جون و يودعها بتلك الطريقة فغريزة التملك بداخلها جعلتها ترتمي على صدره حين قال لها وداعا ، لا نعرف قيمة الأشياء الا حين نفقدها و حب جون ليس شيئا بل شلال جارف و رغم ذلك لم تشعر به سامنتا إلا حين لمح بجفافه ، جون وجد لي وظيفة كعاملة في متجر للملابس ، فينوس المرفهة صارت عاملة ، لكنني أحببت عملي و أحسست بالرضا و أنا أخط طريقي بعيدا عن أبي ، لم ينقصني غيرك كي أكمل طريقي نحو مجدي الشخصي فأين أنت؟ أقسى ما مر عليّ هي ليلة عيد الشكر حين قضيتها بعيدا عنك عشت تلك الليلة على ذكريات العام الماضي حين قبلتني أول مرة و أودعت بداخلي حبك ، أين أنت؟

بحثنا عنك كثيرا حاولنا الاستفادة بنفوذ سامنتا الإعلامي كي نجدك دون جدوى دوما كان الصمت هو الحائط الذي يجيب على اسئلتنا ، حتى تم الاعلان عن القبض على ابي قتادة الموصلي حينها فقط أجابنا أحد المسؤولين أنه قد تم ترحيلك إلى مصر ، حينها أصابني الانهيار لم تقو أقدامي على حملي فسقطت مغشيا عليّ كانت آمالي منصبة على أنني معك في نفس البلدة لاكتشف أنك هناك في آخر العالم ، و مع ذلك انتظرك و سأنتظرك دائما ، الكرة المائية معي تناديك سيدة الحرية بداخلها تنتظرك كي تعيد لها بريقها ، فالدنس يحيط بها من كل جانب خصوصا بعد ان استعمل ستيف براون شهرته و خاض انتخابات عمدة نيويورك و حصل على المنصب رغم أصوله اليهودية ، إلا أنه أظهر للناس أنه كاثوليكيا حتى يحظى بالمنصب و استطاع اقتناصه ، كل شيء هنا يحثك على العودة فأنت الوحيد من كان يعطي لنيويورك رونقها و يمنحني الايمان بها

أحبك وانتظرك دائما فلقد انتزعت لقب عائلتي من اسمي و صار كاسيدي ماضي بالنسبة لي و لم أعد سوى جوليا تنتظر لقب البابلي لتضيفه إلى اسمها فلا تبخل عليّ بلقبك يا أدهم

حبيبتك التي مازلت و ستظل دائما تسير بعروقها

جوليا

وضعت الرسالة في جيبي قبل أن أمسح عيناي التي اغرورقت بالدموع ، عيناي التي تراها الآن تجلس في زاوية غرفتها تضم ركبتيها إلى صدرها ، أسمعها تناديني : آدم خذني بين ذراعيك و ارحل بي بعيدا عن تلك الحياة .

أراني اقترب و اقترب أضم حياتي إلى صدري ، أحملها بين ذراعي ، ثم اقبل سعادتي المنقوشة على شفتيها ، أهيم في مروجك الخضراء المتمثلة في زمردتين تنظران لي بينما أغرق بداخلهما إني أتنفس حبك يا صغيرتي لذا فأنا قادم ،قادم لنعيد للرياح نضرتها و نمحو آلامها حتى تحمل طائراتنا بعيدا بعيدا هناك حيث الشمس ، حيث نحن ، فنحن شموس الليل من يحمل ضيائها

سأعود أقسم أنني سأعود

الميدان على أهبة الاستعداد ينتظر اليوم خطابا انتظره طويلا ، الكل يتوقع أن التنحي قادم في لحظات قليلة قادمة ، فلماذا لم تتنحى أنت يا أدهم عني لماذا تصر على تذكيري بك كلما نسيت ، ارحمني و ارحل بعيدا عني فلن أكون لك مرة أخرى ، جرحي ما زال نازفا و قلبي يئن تحت وطأة اقدامك التي رحلت عنه يوما .

انتحيت جانبا أبحث عن مكان انعزل فيه عمن حولي ، الملايين يملئون الميدان ، ترى فيكم كم أدهم و كم عايدة؟

كم منكم رحل دون اكتراث و كم منكم تلقى الصفعات ، و ما زال بداخلكم ذلك الطموح و السعي نحو الحياة .

أماه قلبي الصغير صار ممتلئا بالأرز الجاف و مع ذلك مازال هناك كهفا صغيرا لأدهم ، لم استطع أن أكرهه و لا أستطيع التوقف عن التفكير فيه و التأمل فيه و البحث عمن يكون ، كيف لمن ذبح قلبا أن يأتي لذلك المكان و يرفع شعارات تطبيب القلوب .

كم هي غريبة تلك الحياة .

لم يعيدني من هواجسي تلك غير ابتسامة (عادل) و هو يقترب مني :

- عايدة ، لقد دنا النصر و آن لفتاتك أن تتوقف عن الصراخ و أن تثور على الملاك و الشيطان داخل اللوحة و تنتزع منهما العصا لتضرب الكرات
- ما زلت تذكر تلك اللوحة؟
- لا يمكنني أن أنساها فيومها خبرتك جيدا و رأيتك كما لم أرك من قبلها
- عادل ...
- لا تتحدثي فقط اسبحي فوق الموج استسلمي للماء و تلحفي بالشمس و لا تشعري إلا بذراعي يطوقانك ، إنها اللوحة كما يجب أن تكون

عادل؟ إنه الرجل كما يجب أن يكون ،رفيقا شفيقا صديقا ، انسان هو قلب و جمال ، أنت يا عادل تستحق أفضل مني كثيرا فأنا بقايا أنثى محترقة بداخلها كهف بركاني مسموم اسمه أدهم لذا قلت له :

- أرجوك امنحني بعض الوقت

ثم استطردت و أنا أغير دفة الحديث :

- هيا نبحث عن ياسمين ، أخيرا سمح لها والدها بالنزول للميدان
- نبحث عنها ؟ إن هناك الملايين من الناس محتشدين في الميدان ، هل تتوقعين أن تجديها ؟

- نعم سأجدها ، فعيون ياسمين لا يمكن أن نخطئها

عانقت أنامل (عادل) أناملي كي لا أضيع منه وسط الازدحام ، و مررنا بين الناس نبحث عن (ياسمين) كنت انظر لعيون الفتيات بحثا عنها و من الغرابة أني وجدت كل عيون الفتيات هي عينا (ياسمين) الحالمة الفرحة كأنها الآن على صهوة حصان مجنح مع فارسها الأسطوري ذي العين المغرقة لقد كان الميدان يعج بالياسمينات فواحة الرائحة الذكية .

- قلت لكِ لن نجدها في الزحام
- بل وجدتها ، و هي أيضا وجدت ما تبحث عنه

عيون مترقبة متحفزة تنتظر كلمة الخلاص ، يقولون أن المظاهرات اليوم تخطت العشرين مليونا في كل أنحاء الجمهورية ، لا قوة تستطيع الصمود أمام هذا المد الجارف . ظللت طيلة اليوم أفكر فيما سأكتبه إلى جوليا و كيف سأرفق بالخطاب كل ما أشعر به تجاهها .

حين انتهيت سمعت الهتافات تملأ الميدان ، التهليل و التكبير و صيحات الفرح تغدو واقعا ، عاد للشعب نضارته لقد تنحى الرئيس ، رضخ لتأملات شعبه و تركهم يعيدون صناعة بلادهم للأفضل ، سقطت الكرة السوداء داخل الحفرة لتنتهي اللعبة و تصبح الأعوام الماضية مجرد ذكرى ، لكن هاجسا مخيفا أصابني هل سقطت كل الكرات قبل الكرة السوداء ، أم سقطت الكرة السوداء قبل باقي الكرات و خسرنا اللعبة ، طردت الهاجس سريعا و طاردته بعيدا إنه حالنا كمصريين في وقت الفرح تطاردنا الهواجس السلبية وقت الفرح فلنفرح اليوم فلنضحك ، و لنرقص رقصة أبدية لا تنتهي ، أنتوني بانوتشي قتلته رقصة انتهى معها بينما سنسبح نحن في عالم الخيال نحمل قلوبنا نحو المجد ، أطفال اليوم سيحملون غدا قلوبا لم تعرف العبودية ، أنت ايها الحاج (علي) ستبتسم و تبتسم و

أنت تنظر إلينا ستومىء لنا برأسك في رضا و تمنحنا بعض الدفء لنكمل طريقا رسمناه و بدأنا السير في خطاه .

بحثت عن (بول ستيوارت) في كل أرجاء الميدان ، أعلم أنك هنا فتلك الفرحة اليوم هي حديث العالم ، لكن من الصعب إيجاد رجل في ذلك الخضم البشري ، لكني وجدته فقلبي اليوم هو من يقودني ، كان يقف مع شاب مصري يحدثه ، كان الشاب يحمل علما كبيرا لمصر يلفه حول جسده و تعلو الضحكات من بين حروفه ربتت على كتف (بول) فجاء معي قائلا :

- أهنيك يا أدهم اليوم سطرتم تاريخا جديدا للعالم ، كل العيون مسلطة عليكم كي تستخلص منكم الجمال .
- أشكرك يا صديقي ، و لكن اعذرني لا استطيع الحديث الآن بعد كل ما عانيت أريد بعض الراحة فلتحمل عني تلك الرسالتين ، أرجو ان توصلهما إلى صاحبيهما

و سرت

منها طويلا ، جراح أدمت ظهري و أهدرت كرامتي حتى أتى اليوم الذي قابلت فيه السيدة حرية ، كلا ليست تلك السيدة الصماء التي تقف هناك عند شاطئكم ، إنها كاذبة مخادعة ، فلا توجد سيدة حرية يحكمها شخص مثل ستيف براون ،بالكاد تحملني قدمي بعيدا ، حتى وجدت مكانا على الأرض جلست فيه بل سقطت و أنا أرى طقوس الأفراح و ابتسم و ابتسم بل أضحك و أضحك حتى رأيت الشاويش سلامة قادما نحوي و في يده طفلة صغيرة عرفت انها ابنته تحمل في يديها خيطا مدلى من بالونة براقة الألوان جلس بجواري ثم قال :

- أخيرا انتصر الحق و زهق الباطل ، لكن في الغد هل سيتقبلونني بينهم ؟
- بالتأكيد يا صديقي ربما سيحتاجون بعض الوقت فقط
- أعلم ان ما صنعه أقراني يتعدى حدود الانسانية لكن لماذا يجب للذنب أن يعم؟
- لأننا بشر

- حقا إننا بشر حبيبي عقول ضيقة ، رحمك الله يا حاج علي ،كم كنت أتمنى أن ألقي نفسي الآن بين ذراعيك كي تحررني من عقلي الضيق و انطلق حيث الحرية الكاملة بعيدا عن مخاوف الغد
- هو هنا يا صديقي أشعر أنني أراه يبتسم

لمحت دمعة في عين الشاويش سلامة يريد اخفائها ، فتوجهت لابنته و سألتها عن اسمها قالت لي : سارة

فقلت لها :

- سارة ، البالونات لم تخلق كي نربطها بخيط و نقبض عليها بأيدينا ، البالونات خلقت كي تنطلق نحو السماء

ثم حررت البالونة من يديها ، في البداية رأيت على ملامحها الغضب لكن حين رأت البالونة و هي تعلو و تعلو بدأت البهجة تعرف طريقها إليها ، لذا أخذتها و ذهبت لبائع البالونات و اشترينا بالونات عديدة قمنا بتحريرها، رفعت رأسي لأعلى اراقب البالونات و أتذكر جوليا و طائراتها الورقية و يتصاعد لعقلي ما كتبته في الرسالتين

الرسالة الأولى ل(جوليا كاسيدي)

فينوسي الباهرة

لم أتوقف عن مناداتك بفينوسي رغم أنك توقفتِ عن مناداتي بآدم ، طفلتي الحسناء أراكِ الآن ترتدين ردائك الوردي القصير فتبهرين بجمالك الأنظار و تجعلينها تهاجر إليكِ من كل صوب ، أشعر بأناملك و هي تدلك وجنتي بحنان فتحملهما إلى عالم آخر هناك ، اشتاق إليك رغم أنك لم ترحلين عني قط ، فما زلت أبحر في عينيكِ لعلني أجد مرفأ تحط فيه قدمي هو قلبك .

خطابك كان بلسما لجراح عانيت منها كثيرا ، و أيقظ بداخلي أمل العودة لكن ليس من أجل سيدة الحرية فلقد اكتشفت خداعها بعد ان وجدت سيدة الحرية الحقيقية

إنها سيدة أخرى تجلس على عرش قلوب الملايين الذين أراهم أمام عيني الآن ، أتوا ليلبوا ندائها و يعيدوا أمجادها ، كم أتمنى أن تكوني معي الآن لتتلمسي معي نور الحرية المنبعث من عيون من تلبستهم فآمنوا بها ، الحرية الحقيقية التي كنا نريدها و نبحث عنها دائما في اسراب الطيور و حركة الرياح و جمال الطبيعة، حبيبتي أنا سعيد .

نعم وجدت السعادة الحقيقية تنبت بذرتها في قلوب آمنة مطمئنة تعلم أن الله لن يضيرها و لن تُضام أو تُذل أبدا

كم أود أن أضمك إلى صدري و أبث إليكِ تراتيل الهوى و أحدثك عن مئات القصص و آلاف الروايات التي لم يقصها أديب من قبل ، قصص مرئية تقرئينها في عيونهم .

سأعود يا جوليا ، سأعود لأطير بك و معك و لك في السماء نجمع من النجوم قناديلا تزين غرفتنا الصغيرة ، سأحملك معي على جناح الحرية التي عرفتها و تعلمتها هنا سأبني لكِ قصورا من جمال صاف تجري تحتها أنهار من نور خالص ، و في القلب لكِ عرش تغبطه بلقيس و تحسدك عليه أفروديت

فينوسي الحسناء تجلدي و اصبري فلم يتبق الكثير سنكون معا قريبا قريبا .

و لا تنسي أن تبلغي سلامي لصديقي (جون) و هنئيه أن حصل على جائزته و اطلبي منه أن يصلي من أجلنا كي يجمع الله بين جسدينا كما جمع بين روحينا ثم قولي له أن أدهم قادم ليعلمك الكثير عن البليارد الذي اكتشف إنه لم يعلمه لك كما ينبغي

أحبك بعدد قطرات الندى التي تبلل زهرات الصباح بل بعدد قطرات البحر التي تخفي عن أعيننا كنوز لا تحصى

فينوسي الساحرة انتظريني

أدهم

الرسالة الثانية (مكتب عمدة نيويورك)

السيد / ستيف براون

أتحداك في مباراة بليارد أخيرة

أدهم البابلي

كل القصص تتشابه في أنها تنتهي بكلمة تمت ، و كل كلمة (تمت)منها تتشابه في كونها خادعة ، فلا توجد قصص (تتم) أبدا ، القصص تنتهي فقط حين يسأم كاتبها و يتوقف عن الكتابة .

القصص أوبرا لا تنتهي ، يعلو اللحن حينا و يخفت حينا لكنها لا تتوقف عن الغناء .... أو الصراخ

مصطفى سيف الدين

قنا – يونيو 2012